الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية

جامعة الشهيد حمه لخضر- الوادي-

معهد العلوم الإسلامية قسم أصول الدين

الدراسات الاستشراقية للقرآن الكريم والسنة النبوية

سنة ثالثة كتاب وسنة

د: إيمان فرطاس

الموسم الجامعي:2022-2023

أولا: مدخل الى علم الاستشراق

1- مفهوم الاستشراق

لتحديد مفهوم الاستشراق يجب العودة إلى المعنى اللغوي لمصطلح الاستشراق ليَتبيّن جذره اللغوي، ومن ثمّ يُبحث معناه في الاصطلاح.

أ- الاستشراق في اللغة:

لم ترد لفظة الاستشراق كمصطلح في قواميس اللغة العربية لكن يستخلص معناها باستخدام علم الاشتقاق والصرف. فمصدرها الأصلي من كلمة شرق. وجاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس "الشين والراء والقاف أصلٌ واحد يدلُّ على إضاءةٍ وفتحٍ. من ذلك شَرَقَت الشّمسُ، إذا طلت. وأشرقت إذا أضاءت. والشُّرُوق: طُلوعها... والشَّرْق: الـمَشْرِق".[1]

فأصل كلمة الاستشراق في اللغة من الشرق وهو مطلع الشمس، وأضيف له الألف والسين والتاء (است) التي تفيد طلب الأمر فأصبح (استشرق) وهو طلب الشرق.

ولماّ درج استعمال هذه الكلمة عند الباحثين، تم اضافتها إلى المعاجم اللغوية الحديثة: فقد جاء في متن اللغة: "استشرق طلب علوم الشرق ولغاتهم – مولدة عصرية- يقال لمن يعتني بذلك من علماء الفرنجة"[2].

ب-الاستشراق اصطلاحا

اختلف الباحثون حول تحديد مفهوم مصطلح الاستشراق، وهذا الاختلاف نابع من اختلافهم في تحديد المقصود بالشرق والغرب:

●الاستشراق عند الغربيين:

يرى رودي باريت Raudi Paret أن الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة، ولابد لنا إذن أن نفكر في المعنى الذي أطلق على كلمة الاستشراق المشتقة من كلمة شرق، وكلمة شرق تعني مشرق الشمس، وعلى هذا يكون الاستشراق: هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي"[3]. فالاستشراق عند رودي باريت له معنيين: معنى خاص هو فقه اللغة، ومعنى عام هو علم الشرق.

●الاستشراق عند العرب:

عرّفه ساسي سالم الحاج بأنه: "الدراسة المتقصية المتنوعة المتعددة الأغراض التي مارسها الغربيون لمحاولة فهم الشرق والتعرف إلى كنوزه الحضارية، وعاداته وتقاليده وحضارته وديانته وكل منحى من مناحي حياته، مهما كان الغرض الدافع لهذه الدراسة سواء أكانت لأهداف دينية أو عسكرية أو سياسية أو اقتصادية أو علمية. وهذه الدراسة الضخمة أنتجت لنا ما نطلق عليه الاستشراق" [4]، وهو تعريف يظهر فيه التركيز على نوعية الكتابات الاستشراقية بكونها علمية ومتنوعة ومختلفة الأهداف.

ويعرفه مصطفى عبد الستار مول بقوله: "هو دراسات يقوم بها غير المسلمين من خارج الحضارة الإسلامية، عن العروبة والإسلام دينا وحضارة أو أي فرع من فروع الاستشراق الاخرى للاختراق الفكري للكيان المدروس حتى يحقق غايات عدة في مقدمتها التشكيك بالإسلام وابعاد الناس عنه.[5]

وقد يكون هذا التعريف هو أدق التعاريف وأجمعها لأنه يبين أنها:

- دراسات: فتدخل الدراسات الأكاديمية المنتظمة وغيرها

- يقوم بها غير المسلمين من خارج الحضارة الإسلامية: حتى تخرج فئة تلامذة المستشرقين من المسلمين فهم يدخلون تحت تيار الحداثة وما بعدها، ويخرج غير المسلمين ممن يستوطنون العالم الإسلامي فهم من أهل الشرق، ودراستهم تعد من علم الأديان.

- عن العروبة والإسلام... وبها يتبين موضوع علم الاستشراق بشكل عام.

---

1 أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحق: عبد السلام محمد هارون، اتحاد الكتاب العرب، 2002م، دط، ج3، ص 264.

2 أحمد رضا، معجم متن اللغة موسوعة لغوية حديثة، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1959م، ج3، ص 311.

3 رودي باريت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الإسلامية، تر مصطفى ماهر، دار الكتاب العربي، القاهرة، 2011، ص17.

4 ساسي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي (الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية)، دار المدار الإسلامي-بيروت، ط1، 2002م، ج1 ص 20-21

5 القرآن الكريم في كتابات رودي باريت (كتاب محمد والقرآن) أنموذجا دراسة تحليلية، مصطفى عبد الستار مول، اشراف عقيد خالد العزاوي، دار العصماء، ط1، 2014م، ص21.

- للاختراق الفكري للكيان المدروس: وبها تبرز وسيلتهم الأساسية لتحقيق أهدافهم.
- التشكيك بالإسلام: وهو الهدف الأساسي لنشأة هذا العلم فأغلب من كان في هذه الحركة نادرا ما يبتعد عن هذا الهدف وإن لم يكن معلنا.

ولقد كان هذا التنوع في عرض مفاهيم الاستشراق عند الغرب والعرب، بغرض بيان ملامح النظرة العامّة للاستشراق، وأفاق تطوره بمرور الوقت، والموقف العربي العام منه والذي يظهر تحت السطور وخلف الكلمات.

وعليه يكون المستشرق: هو كل من يتخصص من غير المسلمين في بحث ودراسة كل ما يتعلق بالشرق عامة والإسلام وحضارته خاصة.

أ- **نشأة الاستشراق**

اختلف الباحثون في نشأة الاستشراق في تحديد سنة معنية أو فترة معينة لنشأة الاستشراق فيرى البعض أن الاستشراق ظهر مع ظهور الإسلام وأول لقاء بين الرسول ρ ونصارى نجران، أو قبل ذلك عندما بعث الرسول ρ رسله إلى الملوك والأمراء خارج الجزيرة العربية أو حتى في اللقاء الذي تم بين المسلمين والنجاشي في الحبشة. بينما هناك رأي بأن غزوة مؤتة التي كانت أول احتكاك عسكري تعد من البدايات للاستشراق، ويرى آخرون أن أول اهتمام بالإسلام والرد عليه بدأ مع يوحنا الدمشقي وكتابه الذي حاول فيه أن يوضح للنصارى كيف يجادلون المسلمين. ويرى آخرون أن الحروب الصليبية هي بداية الاحتكاك الفعلي بين المسلمين والنصارى الأمر الذي دفع النصارى إلى محاولة التعرف على المسلمين، وأن الصراع بين الفرنجة والمسلمين أثار أحقاد الغرب على الإسلام المسلمين.

ويرى د.مصطفى السباعي أن احتكاك النصارى بالمسلمين في الأندلس هو الانطلاقة الحقيقية لمعرفة النصارى بالمسلمين والاهتمام بالعلوم الإسلامية ، ومن أوائل هؤلاء الرهبان الراهب الفرنسي "جربرت "الذي انتُخب" بابا "لكنيسة روما عام 999م، بعد تعلمه في معاهد الأندلس وعودته إلى بلاده، و"بطرس المحترم "1156، و"جيرار دي كريمون ."1187 . بينما يذهب البعض إلى أنه بدأ في القرن الثاني عشر الميلادي؛ حيث تمت فيه ترجمة القرآن إلى اللاتينية لأول مرة عام 1143م بتوجيه الأب" فيزابل"، وفي هذا القرن أيضا أُلف أول قاموس لاتيني عربي.

ولم يشع استعمال مصطلح الاستشراق في أوروبا إلا مع نهاية القرن الثامن عشر، فقد ظهر أولا في إنجلترا عام 1779م، وفي فرنسا عام 1799م. ودخل إلى معجم اكسفورد عام 1812م، كما أُدرج في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام 1838م ، وطبقاً لبعض المؤلفين لقد استعمل مصطلح Orientalist للمرة الأولى في مستهل عام 1766م، حيث ورد في موسوعة لاتينية للتعريف بالأب بولينوس .

وكل هذه الآراء تعبر في حقيقتها عن الإرهاصات الأولى لبداية الاستشراق، لأن البداية الحقيقية للاستشراق بدأت مع النهضة العلمية والصناعية في أوربا، مع بدايات القرن السادس عشر حيث "بدأت الطباعة العربية فيه بنشاط فتحركت الدوائر العلمية وأخذت تصدر كتاباً بعد الآخر .." ، ثم ازداد النشاط الاستشراقي بعد تأسيس كراس للغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية مثل كرسي أكسفورد عام 1638 وكامبريدج عام 1632، كما ساعد تأسيس الجمعيات العلمية مثل الجمعية الأسيوية البنغالية والجمعية الاستشراقية الأمريكية والجمعية الملكية الآسيوية البريطانية على ازدهار الإنتاج الاستشراقي وذلك لاجتماع الطاقات العلمية، والوسائل الإدارية والتمويل المالي لمشاريع الاستشراق، كما كان للاحتلال الغربي لعدد من دول الشرق أثره في خدمة الاستشراق، ومع انطلاق المؤتمرات الاستشراقية سنة 1873م، توحدت جهود المستشرقين وأصبحت ذو طابع منظم ومنسق ومتكامل مما جعل اللاحق يستفيد من جهود السابقين ويبني عليها.

لكن بعد المؤتمر الذي عقُد في باريس بعد قرن من الزمن في سنة 1973م قُرّر الاستغناء عن هذا المصطلح، وأن يطلق على هذه المنظمة (المؤتمرات العالمية للدراسات الإنسانية حول آسيا وشمال أفريقيا ICHSAN وعقدت المنظمة مؤتمرين تحت هذا العنوان إلى أن تم تغييره مرة ثانية إلى (المؤتمرات العالمية للدراسات الآسيوية والشمال أفريقية ICANAS). وقد عارض هذا القرار دول الكتلة الشرقية (روسيا والدول التي كانت تدور في فلكها) أمّا الأوروبيون الغربيون والأمريكيون فقد أصروا على رفض مصطلح الاستشراق، واستبداله بمصطلحات جديدة. هذا التغيير جعل الباحثين يختلفون في نهاية الاستشراق فبينما يرى بعضهم أنه انتهى في مؤتمر باريس، يرى آخرون أن ما حدث في مؤتمر باريس عبارة عن "تطور طبيعي لمجال معرفي كان محصورا في عدد محدد من المتخصصين في الشرق، وبخاصة العالم العربي والإسلامي، ولما أصبحت العلوم المختلفة

ذات كيانات مستقلة؛ كعلم الاجتماع وعلم الانسان والعلوم الأخرى، وأصبح لها معطيات ومناهج جديدة فلابد أن يستفاد منها في دراسة الشعوب الأخرى للتمكن من المعرفة الدقيقة لهذه الشعوب". ويرى عبد الأمير الأعسم أن الاستشراق غير وجهته من الناحية العلمية إلى الناحية السياسية، بحيث أصبحت هذه الدراسات "أداة طيعة الآن بأيدي دوائر الإمبريالية". لكن الحقيقة أن الاستشراق غيّر اسمه وثوبه، وبقي محافظا على نفس المنهج والأهداف والأفكار.

ب- **أهداف الإستشراق**

أ- الهدف الديني: ويُعد من أهـم الأهداف وأوكدها ، وقد ساير الاستشراق في كل مراحله وكان دافعا أساسيا لنشأته، وخاصة بعد فشل الحروب الصليبية، وتشجيع الكنيسة لرجال الدين يقول ادوارد سعيد: " وحتى نهاية القرن التاسع عشر لم يكن الاستشراق قد حرر نفسه من الخلفية الدينية التي اشتق منها إلا بدرجة ضئيلة"[6] ، ويؤكد هذا الرأي ما يقوله المستشرق اليهودي (برنارد لويس) :"لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين، ومستترة في الغالب وراء الحواشي المرصوصة في الأبحاث العلمية"[7]، وكان الهدف الديني يسير وفق خطة واضحة عبر ثلاث اتجاهات:

- محاربة الإسلام وتشكيك المسلمين في دينهم من خلال بث الشبهات والافتراءات
- حماية المسيحين من الإسلام بحجب الحقائق وتزييف الوقائع والتحذير من خطره المزعوم.
- تنصير المسلمين واستمالتهم إلى المسيحية.

لذا كانت الكتابات النصرانية المبكرة من النوع المتعصب والحاقد جداً حتى إن بعض الباحثين الغربيين في العصر الحاضر كتب نقداً عنيفاً لاستشراق العصور (الأوروبية) الوسطى من أمثال نورمان دانيال في كتابه (الإسلام والغرب). وكتاب ريتشارد سوذرن (صورة الإسلام في العصور الوسطى).

ب-الهدف الاستعماري: لقد خدم الاستشراق الأهداف السياسية الاستعمارية للدول الغربي، فقد تفانى المستشرقون في تقديم المعلومات الموسعة عن الدول التي تود دولهم استعمارها، والاستيلاء على ثرواتها، إما بشكل الوظائف الحكومية داخل السفارات وأجهزة الاستخبارات أو بطرق الإرسال المستتر بالزيارات العلمية، ويظهر ذلك جليا في التقارير والمراسلات وأدب الرحلات التي كشفت الجهد الكبير الذي قام به المستشرقون في تسهيل مهمة الاحتلال بالتوصيف الجغرافي وكشف نقاط القوة والضعف لدى الشعوب، واستثمارها بإضعاف المقاومة الروحية وبث الفرقة بين طوائف المجتمع، واختراق المجتمع فكريا.

ومثاله ما قام به المستشرق سنوك هرجورنيه الهولندي الذي جاء وعاش في مكة وتسمى باسم عبد الغفار ومكث فيها فترة من الزمن وصور بقلمه وكاميرته المجتمع المكي والتقط العديد من الصور للحرمين المكي والمدني وللأسواق الشعبية وللمناطق المحيطة ثم انتقل إلى أندونيسيا ومكث فيها ما يزيد على 17 سنة وفور خروجه حدث الاحتلال الهولندي لإندونيسيا وعُلم في ما بعد أنه مرسل من الخارجية الهولندية

ت- **الهدف الاقتصادي:** بعد النهضة الاقتصادية في أوروبا احتاجت المصانع إلى المواد الأولية وكذا الأسواق التجارية التي توفر لها الربح السريع، فتسارع المستشرقون للاستكشافات الجغرافية التي تكشف لهم عن الموارد الطبيعية للبلدان، ونشطوا في الدراسات الاجتماعية واللغوية والثقافية بهدف التمهيد للتعاملات الاقتصادية وتطوير ثقافة الاستهلاك عند الشعوب، ليتحول عمل المستشرقين بعدها لإعداد التحليلات والاستشارات الاقتصادية التي ضمنت السيطرة الغربية على الاقتصاد الشرقي من خلال الشركات العابرة للقارات.

ت- **الهدف العلمي :**يقصد به ما قامت به فئة قليلة من المستشرقين حاولوا التزام الموضوعية والبعد عن المذهبية والتعصب، وإن كان تأثرهم بمن قبلهم يطغى في بعض الأحيان، لكن كتاباتهم غلب عليها الإنصاف وعرض الحقيقة، لأن دافع المعرفة وحب الاطلاع على الآخر كان هدفهم، وجاءت جهودهم في مجال خدمة التراث الإسلامي بطبع الكتب وتحقيقها وفهرسة المخطوطات، واعداد المعاجم، والتنقيب عن الاثار والنقوش، لكن بحوثهم لم تكن تلقى رواجا كبيرا ، وكانوا عرضة للنقد

6 الاستشراق، ادوارد سعيد، ص 265.

7 العرب في التاريخ، برنارد لويس، ص 63.

والعداء من قبل باقي المستشرقين المخالفين لهم وكذا حكومات بلدانهم، وأغلب من سلك هذا الدرب وصل الى حقيقة الإسلام وأسلم ومن أشهرهم نصر الدين دينيه، محمد أسد...

4. وسائل الاستشراق

سعى المستشرقون إلى تحقيق أهدافهم السابقة، ونشر أراءهم وأفكارهم باستخدامهم للعديد من الوسائل من أهمها:

1. **تأليف الكتب:** ويعد من أهم الوسائل الاستشراقية وأخطرها، ووسيلتهم الأكثر رواجا، وقد وصل عدد ما ألفوه في مدة قرن ونصف أي منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين نحو ستين ألف كتاب "بواقع اربعمائة كتاب كل عام ونحو ثلاثة وثلاثين كتابا كل شهر، وهو عدد كبير يدل على الاهتمام الغربي بالشرق" وامتازت كتبهم بكثرة طرح الشبهات والتقليل من شأن الإسلام، عبر التحريف والتأويل المتعسف، والتعميم الفاسد لأحداث خاصة على مجمل سيرة وتاريخ الإسلام

وحرص المستشرقون على انشاء مكتبات تجمع فيها اصدارات الاستشراق وما يحتاجونه من مخطوطات، ومن أشهر المكتبات مكتبة باريس الوطنية، ومكتبة المتحف البريطاني، ومكتبة الاسكوديال بإسبانيا والتي تحوي المخطوطات العربية والإسلامية من بقايا المكتبة الاندلسية بغرناطة، ومكتبة ليدن التي فيها مخطوطات نفيسة قام بجمعها الهولنديون عبر قرون.

2. **عقد المؤتمرات:** اعتمد المستشرقون على عقد مؤتمراتهم بهدف توحيد الجهود وتبادل الخبرات فيما بينهم، والتنسيق المنظم بين أصحاب التخصص، وقد نظم أول مؤتمر للاستشراق في يوليو 1873 بباريس، بدعوة من (الاتحاد الأممي للمجامع العلمية) الذي رعى المؤتمرات الاستشراقية، وبلغ عددها 29 مؤتمرا لتنتهي في يوليو 1973م، وتستبدل إلى (المؤتمر الدولي للدراسات الآسيوية وشمال إفريقيا).

3. **التعليم الجامعي:** استخدم المستشرقون الأقسام الجامعية والمعاهد والمراكز التي تعنى بشكل رئيسي بالعالم الإسلامي والدراسات العربية ، سواءً كان بالابتعاث ، والذي نشط في فترة زمنية معينة أو افتتاح الجامعات في البلدان الإسلامية مثل: الجامعة الأمريكية في بيروت ، وفي الإمارات بأكثر من فرع ، ومصر وغيرها

كما نشطوا في جامعات التعليم عن بعد، ومراكز تعليم اللغات التي تمهد لهم اختيار طلبة يسيرون وفق مناهجهم لتحقيق غاياتهم. مثل: المجلس الثقافي البريطاني، والمجلس الثقافي الفرنسي .

4. **إنشاء الجمعيات ونشر المجلات والموسوعات:** اهتم المستشرقون بإنشاء الجمعيات التي تقدم لهم الدعم المادي والمعنوي، وترفع من شأنهم، وعملوا على نشر المجلات فأصدروا عدداً منها مما له عناية بالعالم الإسلامي بشكل مباشر وأطلقوا عليها مسمى العالم الإسلامي أو الإسلام ومن ذلك: مجلة العالم الإسلامي الألمانية والأمريكية، مجلة جسور الأمريكية، مجلة ينابيع الشرق بفيينا .

كما ألفوا الموسوعات العلمية الكبرى وحشدوا لها الحشود والميزانيات الكبيرة ومن ذلك : دائرة المعارف الإسلامية، وصنفوا المعاجم المفهرسة تسهيلا للباحثين عموما والمستشرقين خصوصا للبحث في الآيات والأحاديث نظرا لضعفهم الكبير في هذا المجال، من أشهرها المعجم المفهرس لألفاظ القرآن للمستشرق الألماني فلوجل الذي طبع عام 1842 م، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث الذي ألفه جماعة من المستشرقين تحت اشراف فنسنك، وتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ت1956م.

5. **جمع المخطوطات وترجمة الكتب العربية:** برع المستشرقون في جمع المخطوطات الإسلامية والعربية واعتنوا بها من حيث الحفظ والفهرسة والتحقيق، ثم ترجمتها الى لغاتهم، كما اهتموا بالتراث الإسلامي وترجمته للاستفادة منه ما كان سببا في النهضة العلمية الحديثة في أوربا.

6. **الاعلام والانترنت:** استغل المستشرقون وسائل الاعلام ومواقع الانترنت لتحقيق أغراضهم، ونشر أفكارهم نظرا لاختصارها الجهد والوقت والتكلفة، واستعانوا بها في مواكبة الأحداث والتطورات، كما عززت تواصل المستشرقين فيما بينهم والاستفادة المتبادلة بينهم.

5. مدارس الاستشراق:

صنف الباحثون المستشرقين اعتمادا على التقسيم الجغرافي لمراعاته خصائص البيئة التي تؤثر في شخصية الكاتب وتوجهه لخدمة مصالحها خاصة ان ارتبطت بالاستعمار والسياسة والاقتصاد، فظهر على هذا الاساس عدة مدارس أهمها:

المدرسة الانجليزية

بدأ الاهتمام بالاستشراق في بريطانيا في وقت مبكر عندما أسس السير توماس أدمز كرسي الدراسات العربية في جامعة كامبريدج عام 1632م. ، كما ازدهرت هذه الدراسات بعد تخرج المستشرقين الانجليز على يد المستشرق الفرنسي سلفستر دي ساسي، وبعد السيطرة الاستعمارية للانجليز على منطقة الشرق مما عزز أهمية الاستشراق في فهم الشرق، وتنوعت الدراسات الانجليزية حول الحضارة الاسلامية مع ملاحظة اصطباغها بالمصلحية بدرجة كبيرة. وارتباطها بالحركة الاستعمارية والدوفع الدينية من خلال البعثات التنصيرية.

وامتازت بالتخصص حسب العلوم ، وحسب المناطق ما عمق دراساتها.

من أشهر رواد المدرسة الانجليزية: هاملتون جب – ارثر جون اربري- رينولد نيكلسون- توماس ارنولد- صمويل مرجليوث- مونتغمري وات- جورج سال الذي ترجم القرآن الكريم.

المدرسة الفرنسية

بدأ الاستشراق الفرنسي مع تأسيس مدارس ريمس وشارتر لتدريس اللغة العربية، وانشاء كرسي للدراسات الاسلامية في جامعة السوربون التي ألحق بها معهد الدراسات الاسلامية، إضافة إلى إنشاء مدرسة اللغات الفرنسية الحية سنة 1795م، والتي أشرف عليها (سلفستر دي ساسي) الذي يعد عميد الاستشراق في النصف الأول من القرن التاسع عشر دون منافس[8]، وعلى يديه تخرج أغلب كبار مستشرقي أوربا من بعده

كانت بدايات الاستشراق الفرنسي في الدراسات الاسلامية تتسم بطابع القرون الوسطى ونظرتها للإسلام، لكن مع نهاية القرن السابع عشر بدأ يغلب عليها التوجه العلمي نظرا للنزعة العقلية التي انتشرت في أوربا مع النهضة العلمية. مع بقاء خدمتها للأهداف الدينية لأن مؤسساتها كانت بإشراف الرهبان والقساوسة ، وخدمة الاستعمار، وتميزت بالتأثير في مناهج التعليم خاصة في شمال افريقيا، لسلطة أعضائه في مواقع التخطيط والتوجيه التربوي، وكذا التأثير في الاستشراق الألماني كون رواده كانوا من تلامذة المدرسة الفرنسية ونشأوا على يد أساتذتها. من أهم رواد المدرسة الفرنسية:

بوستل- سلفستر دي ساسي- مكسيم رودنسون- جاك بيرك- ريجيس بلاشير- لويس ماسينيون- بروفنسال- بول كازانوفا- نصر الدين دينيه- غوستاف لوبون- اميل درمنغم..

المدرسة الالمانية

بدأ الاستشراق الالماني في القرن الثامن عشر، ولم يلاحظ سيطرة الدافع الاستعماري والديني على الاستشراق الالماني لتميزه بغلبة الروح العلمية وهذا نابع لطبيعة الشعب الألماني الدقيق والحريص والصبور، واتباع المنهج العلمي الصارم بأعلى المقاييس العلمية المتعارف عليها.

كما أن عدم قدرة ألمانيا على ايجاد مكان لها وسط الشرق الأوسط في بدايات القرن التاسع عشر للسيطرة البريطانية والفرنسية عليه، جعلها تهتم بالتراث العربي والاسلامي القديم ما أبعدها عن التحامل الغربي للعرب، فعكف مستشرقوها على استخراج نفائس التراث العربي، واعداد المعاجم والفهارس، ويدخل الاستشراق المجري والنمساوي واليوغسلافي وما نتج عن أوربا الشرقية بالعموم في المدرسة الالمانية للتشابه الكبير في المميزات ولأن أغلب المستشرقين تتلمذوا في ألمانيا.

ومن أهم رواد هذه المدرسة: رايسكه- فلوجيل- اهلفارت- هانيش بارث- يوليوس فلهاوزن- تيودور نولدكه- بروكلمان- بيكر- شاخت.

المدرسة الايطالية

ان اهتمام الفاتيكان بتنصير الشرق جعل اغلب مؤسسات الاستشراق تحت اشراف رهبان وقساوسة، مثل الكلية المارونية 1584م، ومدرسة اللغات الشرقية 1623م، ما غلّب عليها الدافع الديني،كما سافر الايطاليون إلى مراكز العلم في العالم الاسلامي لينهلوا منها ما كان له اثر في النهضة الاوربية، ثم ازدهرت هذه المدرسة مع الدوافع الاستعمارية خاصة بعد احتلال ليبيا. وتميز بوجود الكثير من المستشرقات من امثال: ماريا نللينو، اولجابنتو، وانجيلا كوداتزي، بانتا..كما تميز بالوراثة العلمية بحيث يكمل الابناء نشاط ابائهم المستشرقين، مثل جويدي وابنه ميكلنجلو، وغبريالي وابنه فرانشيسكو ونللينو وابنته ماريا.

آثار الاستشراق وكيفية مواجهته

8 قاسم السامرائي، الفهرس الوصفي للمنشورات الاستشراقية في جامعة الامام، ص15، نقلا عن رياض العمري، ص184.

يعد الاستشراق حلقة من حلقات احتكاك الحضارات، وهو صورة من صور الحرب الباردة على الاسلام، ولقد كان انعكاسه على الثقافتين الاسلامية والغربية مزدوجا، وتنوعت اثاره ما بين التأثير الايجابي والتأثير السلبي، بحيث كان مجال انتفاع الغرب به كثيرا، على حساب الاسلام وأهله" وبدلا من أن تسهم بوصفها معرفة انسانية، في الارتقاء بأي وجه من وجوه حياة الشرقيين، فإنها في الغالب كانت وبالا عليهم، لأنها لم تستخدم إلا للسيطرة على مقدراتهم، واحتوائهم واستغلال خيراتهم. وربما سلبهم كل ما يحفظ عليهم إنسانيتهم. فقد وظفت أساس من اجل خدمة منتجها الذي أفاد منها أية إفادة في مواجهته للآخر الذي كان الشرق"[9]. بالرغم من ذلك لا يمكن انكار الأثر الايجابي الذي لم يكن مقصودا من الحركة الاستشراقية، ولا يمكن التغاضي عن الطرح الاستشراقي العلمي النزيه، والاستفادة من معطياته، فهو مصل واقي ضد الاستشراق المغرض، ويمكن اجمال أثار الاستشراق في جانبين أساسين فصل فيهما محمد خليفة حسن[10] في كتابه أثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الاسلامية وهما:

الاثار الايجابية:

- الاستفادة مما أنتجه الاستشراق من دراسات علمية حول البلاد المجاورة للمسلمين والتي يمكن استغلالها للقيام بالدعوة الى الله، ومحاولة رسم خطط للتعامل معها وفق خلفيات دقيقة عنها نجد أغلبها في دراسات المستشرقين.
- تحقيق التراث الاسلامي والكشف عن مخطوطات ثمينة، وفهرستها ونشرها وترجمة بعضها وحفظ المتهالك منها وترميمه، وتصنيف المعاجم اللغوية والمعاجم المفهرسة، ما ساعد في النهضة العلمية في العالم الاسلامي.
- تطوير منهج النقد للتراث الاسلامي، نتج عنه ايقاظ الوعي المنهجي لدى المسلمين، من خلال قراءة التراث واستلهام المعارف الجديدة وتأصيل منهج يقوم بمنافسة المنهج الاستشراقي.
- بيان مكانة الفكر الاسلامي في التراث العالمي من خلال المنهج المقارن بين الحضارات، وبيان فضل الحضارة الاسلامية على باقي الحضارات.
- المساهمة في التعريف بالإسلام والعربية والتراث الاسلامي من خلال ترجمة المستشرقين لمئات الاعمال الاسلامية الى لغات الغرب.
- الاهتمام بدراسة الواقع الاسلامي وبيان مواطن القوة والضعف، واستخلاص حلول ذات طابع غربي، ما شجع المسلمين على استبصار مشاكله واستخلاص حلول لها تنبع من رؤية جوهرية لتاريخهم وعقيدتهم وواقعهم، أسهم في تشكيل فكر اسلامي معاصر .
- تطوير النظم العلمية والتعليمية، ومواكبة الجامعات الاسلامية للتطور العلمي في الجامعات الغربية، وتزويدها بمختلف وسائل ومناهج العلم الحديث، ما امكن الفكر الاسلامي من مسايرة العصر واحداثه، كما سعت الجامعات الى تأصيل العلوم وربطها بالتراث الاسلامي وتوجيهها اسلاميا.
- معرفة حجم التأثير الاسلامي في الفكر الغربي: بادراك مدى مساهمته في النهضة الاوربية، وتأثير في الفنون والآداب الغربية، ومشاركته في تطور الفكر الديني اليهودي والنصراني " فقد أعادت اليهودية والنصرانية النظر في الاعتقادات الخاصة بهما في ضوء النقد الاسلامي لهما. وكانت الاصلاحات الدينية ردود فعل حقيقية تجاه هذا النقد الاسلامي"[11]. كما ظهرت حركة نقد الكتاب المقدس Biblical Criticim التي تعتمد في نظرياتها على النقد القرآني والنقد الإسلامي للكتب المحرفة. والذي انتقل عبر الترجمة الى الغرب.
- كما قام العديد من المستشرقين الذي التزموا الموضوعية في دراساتهم، بالدخول في الاسلام، ما يؤكد سلامة الاسلام من الشبهات الموكلة له، ومن أشهر من درس الاسلام ثم اقتنع به : ايتين دينيه، ليوبولد فايس (محمد أسد)، وليم بكتول، دوجلاس أرثر، موريس بوكاي... وقائمة المتعاطفين طويلة.
- "تنظيم الكتب العربية التي توجد في المكتبات العمومية بأوربا، ووضع الفهارس لها، حتى يسهل الرجوع لها والتنقيب عن المخطوطات الهامة في تراثنا لتحقيقها ونشرها، وتخصص نخبة من علمائه في موضوعات ركزوا البحث في نقاطها

9المعرفةالاستشراقية،مجلةالمعرفة،ع490 تموز 2004،ص51

10 انظر: محمد خليفة حسن أحمد، اثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الاسلامية، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية،ط1، 1997م، ص79

11 اثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات المسلمة، ص 134

الجزئية، حتى كادت تقترن أسماء بعض الباحثين منهم بمن تفرغوا لدراسة شخصياتهم واثارهم العلمية دراسة ممعنة تتطلب صبرا طويلا وعملا دؤوبا وتصوفا علميا، كاشتهار ماسنيون بالحلاج، ولاووست بابن تيمية"[12]

الآثار السلبية:

- تشويه الاسلام بالتشكيك في أصول ومصادر الاسلام مثل القرآن والسنة والعقيدة والعربية والتاريخ، وترويج الشبهات والافكار المنحرفة عن الاسلام، سواء عند شباب المسلمين او الغربيين، مثل الارهاب والدعوة الى الحزبية ودعم المذهبية، وتأثر العرب والمسلمين بالتيار العلماني والمناداة بفصل الدين عن الحياة لتحقيق النهضة كما روج له المستشرقون. وتغيير حقيقة الاسلام وجعله ينحصر في المساجد والعبادات وانغلاقه بمفاهيم التصوف عند ابن عربي والحلاج، وحصر الادب العربي في الف ليلة وليلة، واشعار العشق والمجون. وزرع بؤر النصير في العالم الاسلامي.
- العمل على اسقاط الخلافة العثمانية، ومن ثم تجزئة العالم الاسلامي والتمكين للاستعمار، وبعث القوميات في العالم الاسلامي، ومحاولة نشر النظم السياسية الغربية للحكم في المجتمع الاسلامي، والتمكين للصهيونية.
- التأثير على قيم الاسرة المسلمة، بالدعوة إلى تحرير المرأة المسلمة، وتمييع الفكر الشبابي عن طريق وسائل الاعلام والاتصال، وتفكيك الروابط الاسرية عن الحرية المطلقة وتغيير القيم والترغيب في الجنس والتزهيد في الزواج، وفتح باب الاختلاط،
- نشر القيم الغربية، وترويج الخرافات والاساطير بما يوقع المجتمع الاسلامي في الجهل والخرافة تشتيت جهود العلماء المسلمين في محاربة الظواهر المنحرفة، وفي جمع كلمة للعمل على نهضة بلدانهم وتوعية شعوبهم
- عمل الاستشراق في دراسته على إثارة الخلافات الطائفية للمجتمعات العربية والاسلامية وشحن النزاعات القبلية- وتأجيج الصراعات القديمة، بمنهج الباحث عن الحقيقة وإثبات الحق. بما اعطاه مصداقية أكثر عند الناس.
- تدهور الاقتصاد الاسلامي بالعمل على زيادة البطالة واستنزاف الثروات، والترويج للنظام الليبرالي الرأسمالي الغربي، ومحاربة النظام الاقتصادي الاسلامي عن طريق "إعادة تفسير التاريخ الاقتصادي الإسلامي من وجهة نظر الرأسمالية والشيوعية كنوع من التأصيل للنظريتين وتقديمهما على أنهما لا يمثلان خروجاً عن النظام الاقتصادي الإسلامي"[13]
- الدعوة الى تطبيق المناهج العلمية الحديثة، واسقاطها على القرآن والسنة ونتاج العلماء ما أثر سلبا في فهم هذه المصادر، والتشكيك في مصداقيتها. ما أدى الى ظهور الحداثة التي تتجاوز المقدس والموروث وتثور على كل الاعتبارات.
- تكوين جيل من ابناء الشرق تتلمذ على يد المستشرقين، أكملوا مسيرة اساتذتهم بعد تشبعهم بأفكارهم ومناهجهم وشبهاتهم، "لدرجة أنه أصبح من الصعب في بعض الاحيان رسم حدود فاصلة بين ما يطلق عليه مثلا المعرفة الاستشراقية، أو تلك التي تطورها المدارس الفكرية الغربية الحديثة، وبين ما تنتجه النخبة المحلية المفكرة، بما لذلك من استتباعات منهجية مهمة على مستوى عملية نقد أساسيات المعرفة الحاصلة حتى الآن"[14]. وانشاء جامعات ومؤسسات تعليمية غربية خالصة في المجتمع الاسلامي، وسيطروا على مناهج التعليم في عدد من البلدان الاسلامية ووضعوا بصماتهم عليها.

إن حجم الآثار السلبية كان أكبر وأعمق في جسد الأمة الاسلامية، وخلف جروحا وندوبا متتابعة لا تزال تعاني منها الأمة، وجب على العلماء والمثقفين الوقوف صفا واحدا، لمواجهة هذا المد الاستشراقي، والذي لبس أثوابا عدة في هذا العصر، بحيث بات دخيلا في كل العلوم والفنون، والمؤسسات والأفكار والتيارات، مولدا لمطاعن والشبهات، ومزعزعا للمبادئ والأفكار، ولا تكون هذه المواجهة جادة ومثمرة الا اذا قامت على نفس الرؤية الواقعية التي يقوم عليها الاستشراق، بالتركيز على بيان ونقد سلبياته والاستفادة من ايجابياته، وتستند في وسيلتها الى العقل لا العاطفة، المدعم بالإيمان القوي بصدق الاسلام وأصالته. وتراعي حقيقة استمرار الاستشراق ما بقي صراع الشرق والغرب، وتحاول صناعة قوة موازية له في الجهد والنفوذ والعلم، مضادة له في التوجهات والافكار، وتوفر الدعم من كل الجهات حتى تحقق انجازات لمواجهته، وهذا ما هو غائب في هذا الوقت،

---

12 (نقرة، 1985) ص24

13 محمد خليفة حسن أحمد، اثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الاسلامية، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية،ط1، 1997م، ص79

14 المولدي الأحمر، التاريخ المختلف ضرورة نقد الاستشراق وصعوبات بناء المعرفة البديلة (قراءة نقدية لكتاب: المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا)، مجلة دراسات عربية، دار الطليعة، بيروت-لبنان، س34، ع 7و8، مايو 1998م، ص56

كما أن استعانتها بالمناهج الدقيقة الموضوعية يمنح المواجهة مصداقية وقوة في الطرح والرد، ويبعدها عن العشوائية والانفعالية ويسدد رؤيتها لواقعها ومستقبلها، ومن اساليب اثراء هذه المواجهة[15]:

- الدراسة العلمية الواعية المتعمقة للاستشراق، بإنشاء اقسام متخصصة بالدراسات الاستشراقية في الجامعات الاسلامية، ومراكز بحوث تتابع اعماله ، وتترجمها وتنقدها وترد عليها
- تحصين الفرد المسلم من الشبهات والغزو الفكري، بزيادة وعيه وتمسكه بالدين.
- مراقبة الاعلام وغربلة ما يبثه من افكار تساعد على تسرب الفكر الغربي المنحرف.
- تنقية الفكر الاسلامي من الافكار المشبوهة والمشوهة وخاصة الإسرائيليات والاستشراقيات، بمراجعة كتبه ومصادر التراث، وهو جهد عظيم يتطلب فريقا وجهدا ووقتا ودعما من الدول والمؤسسات المالية.
- توفير البديل الاسلامي للفكر الاستشراقي، وترجمته الى عدة لغات، ما يحدث موازنة في مصادر المعرفة عن الاسلام، ويقلل الاعتماد على المعرفة الاستشراقية. بالمقابل توفير الكتاب الاسلامي الصحيح للمسلم، خاصة دوائر المعارف التي تعد مادة خام لشبهات الاستشراق، ومرجعا أساسيا للمثقفين.
- العمل على تنمية المجتمعات الاسلامية وقطع التبعية للغرب في جميع الميادين، وتحقيق التعاون بين المجتمعات الاسلامية.
- تطوير العمل الدعوي خاصة في الغرب، بتكوين الدعاة وانشاء مؤسسات قادرة على مواجهة الاستشراق من أبناء الغرب المسلمين انفسهم.
- محاولة انتاج اسلامي محلي للثقافة فكما قال الدكتور أكرم ضياء العمري إن علينا " أن نمثل أنفسنا أمام أنفسنا ، بأن تقوم مؤسساتنا العلمية برسم الصورة الثقافية، والتاريخية، والعقدية لأمة الإسلام دون أن تخضع للأفكار المسبقة التي رسمها المستشرقون."[16]

ثانياً ـ مناهج المستشرقين[17]:

سلك المستشرقون في دراستهم للدين الإسلامي مناهج متعددة وفيما يأتي بيان لأهمها وهي ما طبقوه في أبحاثهم ودراساتهم:

أ- **منهج التأثر والتأثر:**

ويعني هذ المنهج رد كل عناصر الدين الإسلامي بعد تجزئتها إلى اليهودية والنصرانية أو إليهما معاً ،أو إلى غيرهما من الحضارات والأديان، وقد طبق بعض المستشرقين هذا المنهج بإلحاح شديد، فحكموا بالتأثر عند كل تشابه، وهكذا تعاملوا مع الإسلام على أنه ليس إلا إفرازاً لحضارات سابقة، فجردوه بذلك من أي سمة إبداعية أصيلة، وجعلوا هذه الصفات وقفاً على الحضارات القديمة، والذي دفعهم إلى ذلك أنهم درسوا الإسلام بالمنهج نفسه الذي درسوا من خلاله المسيحية، ولما كانت هذه الأخيرة قد تأثرت بالبيئة التي انتشرت فيها، ولحقها تطور كبير، إذ دخلت فيها عناصر من بعض الأديان والفلسفات السابقة.

وهذا الادعاء مبني على عناصر التشابه بين الإسلام واليهودية والنصرانية وغالبهم يحاولون إثباته بطرق مختلفة منها تلقي النبي ρ عن اليهود والنصارى ابتداء من ورقة بن نوفل وحتى يهود المدينة، وهذا العدد الكبير من المستشرقين لم يلتفت إلى الإسلام على أنه دين مستقل ذو منظومة شاملة ومتناسقة، وتظهر هذه النزعة في كتابات عدد كبير من المستشرقين فكلما وجدوا تشابه أو اتفاق بين الإسلام واليهودية والنصرانية أو أعجزهم ردُّ شيءٍ مما جاء به الرسول ρ برز لديهم هذا المنهج في ادعاء أخذه واستقائه الإسلام عن الديانات السابقة أو الحضارة اليونانية حتى وإن كان هذا التشابه من نسج عقولهم ولا أصل له في الواقع وفي هذا يقول جولد تسيهر: (تبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية عرفها واستقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثراً عميقاً)، ويظهر كذلك في اتهامه النبي ρ بالكذب في ادعاء النبوة وأنها فكرة استمدها مما سمع عن الديانات السابقة فكتب في الدائرة في مادة جبرائيل : (ولجبريل شأن هام في القرآن وقد اصطنع النبي القصة التي تقول بأن هذا الرسول السماوي يتحدث إلى الانبياء وأعتقد أنه تلقى رسالته ووحيه منه)

وأمثلة ذلك في هذا الجانب كثيرة: فالقرآن من تأليف محمد ε؛ واستعان على ذلك بالوقوف على مصادر أهل الكتاب والإفادة من حاشيته اليهودية والمسيحية ـ كصهيب وسلمان وابن سلام ـ الذين أسلموا وكانوا في صحبته، فحالات التشابه تُفسَّر

---

15 انظر محمد خليفة حسن، اثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الاسلامية، مرجع سابق، ص141-146

16 أكرم ضياء العمري. موقف الاستشراق من السيرة والسنّة النبوية. (الرياض :دار اشبيليا، 1417-1997م)ص 47.

17 ينظر الى : ثائر الحلاق، مناهج المستشرقين في دراسة الإسلام (دراسة وصفية تحليلية)، جامعة دمشق- كلية الشريعة- قسم العقائد والأديان (بتصرف)

بتأثر النبي ε بأفكار ورقة بن نوفل، ومن ثم بعد الهجرة أخذ ينقل عن اليهودية والنصرانية لصياغة ديانة الإسلام الجديدة، وقد اجتهد مونتغمري وات (**Watt**) في سرد الأشياء التي وقع فيها ذلك التأثر، فتحدث عن فرض صلاة الظهر، والجمعة والتوجه نحو بيت المقدس في الصلاة، وصيام عاشوراء، وتحليل طعام أهل الكتاب، والزواج بالكتابيات، والقصص القرآني وفكرة يوم الحساب، وبهذا المنطق نفسه تحدث بروكلمان Brockelman(ت1956م) ، فالرسولε في زعمه ـ منذ طفولته ـ تلميذ للنصارى، فقد عرفوه بإنجيل الطفولة، وبحديث أهل الكهف....إلخ، بل غلا كثيراً حتى جعل معظم أفكار النبيεمنبثقة ـ في الدرجة الأولى ـ عن الديانات السابقة ثم وظفها على نحو يخدم حاجات شعبه الدينية، وأن فكرة التوحيد التي تبناها الإسلام، قد انحدرت من أصول كتابية، ومن كتب الأديان القديمة، وأن التصور الإسلامي عن الملائكة، قد أخذه محمد عن اليهودية، كما أن فكرته عن الجنة قد أخذها عن معلمِين مجهولين؛ تأثروا ببعض الرسومات والفسيفساء المسيحية التي تُصوِّر حدائق الفردوس، وما الحجر الأسود ـ في نظره ـ إلا امتداد لبقايا الأحجار المقدسة في الجاهلية وهو يعد وثناً من أوثانها.

ومهما يكن من أمر فالمنهج العلمي الرصين يأبى أن نطبق هذا القاعدة عند كل تشابه؛ لأن العقل البشري قد يصل إلى نتائج مشابهة إذا تماثلت الوقائع والظروف، وفي دراسة الأديان ذات الأصل السماوي نكون أمام حالة خاصة، ذلك أن ما بينهما من تشابه يرجع أساساً إلى **وحدة المصدر**، ... وهكذا بدل أن تكون حالات التشابه بين الأديان عاملاً يوحدها ويرجعها إلى منبعها الأصلي، ومن ثم يؤكد غايتها المتجسدة في هداية البشر، فقد تحولت بيد المستشرق إلى أداة سطوٍ فكري؛ يتم بواسطتها إفراغ الإسلام من مضمونه، وذلك بإرجاعه إلى مصادر خارجية كالنصرانية، واليهودية، والمجوسية، والبوذية، والبابلية. فهذا المنهج الذي طبقه كثير من المستشرقين على الإسلام، بجعل القرآن ـ بل الإسلام ـ نسخة مأخوذة عن غيره لا يستقيم، فالقرآن الكريم نفى أن يكون النبي ε قد تلقى تعليماً من غيره: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ النحل: 103 ، والقرآن الكريم جاء مرمماً للكتب السابقة ومكملاً لبنائها، فضلاً عن أنه طافح بعدد وافر من الآيات التي تصحح تحريفات الكتب السابقة، أو تعارضها، أو تفندها، وتطرح أيضاً حقائق جديدة تغاير تماماً ما طرحته تلك الكتب.

أ- **المنهج المادي:**

وهو المنهج الذي يمنح العامل المادي أهمية قصوى في تفسير الواقعة التاريخية، فقد فسر المستشرقون من خلاله التوسع المبكر والسريع للإسلام نفسه، "فالجفاف المتزايد في البادية العربية ـ وما أدى إليه من جوع ـ كان العامل الذي دفع العرب في طريق الغزو"، ومن ذلك روح الاعتداء التي اتصف بها البدو من الأعراب، والانحلال الاجتماعي الذي كانت تعاني منه المجتمعات التي دخلت الإسلام، والانفجار السكاني(الديمغرافي) في شبه الجزيرة العربية، وتفوق الأسلحة التي كانت العرب تستخدمها، والصفات النادرة التي كان يتسم بها القادة المسلمون"، وأن الإسلام كان رداً على مرض العصر الذي حدث نتيجة انتقال العرب من حياة البداوة إلى اقتصاد حضري، ومن ثم فالتوسع الذي تم عن طريق الغزوات لا يمكن فهمه إلا على أساس العامل الاقتصادي، ذلك أن زيادة السكان، والمحافظة على مستوى المعيشة، والبحث عن مصدر جديد للرزق، والطمع بالغنائم لا يتحقق إلا بذلك، فشَّرع النبيε القتال وشجع أصحابه عليه، وعندما فشل في الحديبية، قاد حملة على مستعمرة (خيبر)، وضم (فدك) إلى ملكه الخاص، ويرى (مرجليوث) أن حياة محمد ε ـ بعد الهجرة ـ قائمة على السلب والنهب، وأن استيلاءه على خيبر قد بيَّن إلى أي مدى أصبح الإسلام خطراً على العالم؛ بل إن الصحابة ـ بعد وفاة النبي ε ـ شجعوا الكفار للبقاء على كفرهم حتى تستمر جباية الضرائب منهم.

ومحمد ε لم يكن عند بعضهم يبشر في بادئ الأمر بدين جديد، بل دعا إلى نوع من الاشتراكية، فالإسلام في صورته الأولى لم يكن في حاجة لنرجعه إلى ديانة سابقة تفسر لنا تعاليمه، فهو لم يظهر إلى الوجود كعقيدة دينية، بل محاولة إصلاح اجتماعي تهدف إلى تغيير الأوضاع الفاسدة، وخصوصاً إزالة الفوارق الصارخة بين الأغنياء الجشعين والفقراء المضطهدين، لذا نراه يفرض ضريبة معينة لمساعدة المحتاجين (الزكاة) وهو يستخدم فكرة الحساب في اليوم الآخر كوسيلة للضغط المعنوي، وأن معارضة المكيين[المشركين] للنبي ε كما يرى جيب Gibb(ت1971م) لم تكن بسبب تمسكهم بالقديم، أو عدم رغبتهم في الإيمان، بل ترجع إلى أسباب اقتصادية وسياسية، ومن الأمانة أن نذكر أنه مع اتساع إمكانات البحث، وتكشف المزيد من الحقائق المضادة عجز هذا الدافع ـ أعني المادي ـ أن يكون وراء كل ظاهرة، أو أن يفسر كل حدث، مفسحين المجال لفاعلية العوامل الأخرى، فالدافع الصحيح يتجاوز البعد المادي والصراع الطبقي، ولو وقف المرء على حال أولئك الذين اعتنقوا الدين وسبب ذلك، لن يقف على سبب نفعي مهما اجتهد إلى ذلك سبيلاً، وإنما مردّ ذلك إلى عظمة عقيدة انسجمت مع الفطرة، وسحر القرآن الذي ما إن سمعوا به حتى انغسلت ضمائرهم وتزيّل الزيغ عن قلوبهم، ونوَّر اليقين بصائرهم.

ب- **المنهج الإسقاطي:**

يقوم هذا المنهج بإسقاط الواقع المعاصر، على الوقائع التاريخية القديمة، فتفسر اعتماداً على خبرة المستشرق ومشاعره الخاصة، وما يعرفه من واقع حياته ومجتمعه، وهكذا لا يرى الباحث إلا صورته الذهنية دون غيرها من الصور الفكرية التي ربما تخالف ما يذهب إليه، وهنا يحاول جاهداً إخضاع جميع الصور إلى ما ارتضاه لنفسه ولو جانَبَ الموضوعية

أو يسقط قضية (ما) شاعت عند الأديان الأخرى على الدين الإسلامي، فـ Watt ـ مثلاً ـ أسقط الرؤية العقلية المعاصرة حول تدرج الأديان، فتحدث عن تدرج الدين الإسلامي، فأقدم الآيات القرآنية ـ في نظره ـ لا تحتوي على أي هجوم على الوثنية، بل كانت تؤكد على وجود توحيد غامض، ثم أخذ الإلحاح يشتد على وجود إله واحد مع شدة النقد لعبادة الأصنام، وأما عن تحنث النبي ε في غار حراء، فيفسر من قبل Watt على أنه ليس إلا فراراً من حر الصيف، وأن محمداً كان يعرف القراءة والكتابة؛ لأنه عمل بالتجارة، والتاجر لا بد أن يدقق حساباته ويراجعها، وذلك لا يكون إلا بمعرفتهما، وتخيل بلاشير أن الصحابة بتنافسهم ـ في زعمه ـ على الخلافة في مرض النبي الكريم؛ كانوا شيعاً وفرقاً مثل الأحزاب السياسية المعاصرة في تنافسها على الحكم وشماتة الأغلبية بالأقلية، حيث اختلق حزبين متصارعين هما: حزب علي وفاطمة من جهة، وحزب أبي بكر وعمر وعائشة من جهة أخرى.

ت- المنهج الانتقائي:

يتم من خلال هذا المنهج اعتماد رأي أو فكرة أياً كان مصدرها؛ ولو كانت من ناحية أخرى شاذة وضعيفة، بشرط أن تخدم وجهة نظر المستشرق ومبدأه الذي يسعى لتقريره، أو بعبارة أخرى : لا يلتفتون إلا إلى الصورة التي تتفق مع موقفهم غير الموضوعي من الإسلام، يقول (مكسيم رودنسون) ناقداً الباحثين الغربيين: "ينتقون ما يرونه بعناية، ويتجاهلون كل ما لا ينسجم مع الصورة التي كوَّنوها"؛ فقد أخذوا بالخبر الضعيف الشاذ في بعض الأحيان وحكموا بموجبه، واستعانوا بالشاذ الغريب فقدموه على المعروف المشهور، وعولوا على الشاذ ولو كان متأخراً أو كان من النوع الذي استغربه النقدة ونبهوا إلى نشوزه، تعمدوا ذلك لأن هذا الشاذ هو الذي يحقق هدفهم في إثارة الشك.

ث- **المنهج التعميمي**

ويتجلى ذلك بتعميم الواقعة الفردية لتتحول إلى ظاهرة، ومن ثم تقديم تصورات وأحكام عامة، وتجلى هذا المنهج عند المستشرق

"Van Vlotenفان فلوتن"(ت1903م) ـ وهو من كبار المتخصصين في التاريخ الإسلامي ـ وقف عند الطبري على خبر استدانة والي الكوفة سعد بن أبي وقاص من بيت مالها، الذي كان على خزانته عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فاستقضى الخازن الحاكم واشتد في مطالبته، فاستمهله سعد ـ أعني الحاكم ـ فلم يقبل الخازن، وكان بينهما تلاوم، فوصل الخبر إلى عثمان، فلامهما معاً لتلاحيهما أمام الناس فعزل سعداً وأقر ابن مسعود على عمله، فجعل هذه الحادثة الفردية ظاهرة عامة تمثل المجتمع الإسلامي آنذاك، حيث قال: "وقد فرضت حالة الترف المتصاعدة هذه ـ نتيجة الفتوح ـ تغطية دائمة لمواجهة متطلبات جديدة، واللجوء إلى الاستدانة كطريقة فذّة من أجل إشباع رغباتهم"، فبإحالته إلى الطبري أخطأ عليه وقوله ما لم يقل، وأنطق نصوصه بما لا تحتمل، ولو نظر إلى هذه الحادثة بموضوعية وتجرد؛ لعدها من مفاخر الإسلام؛ فالحاكم لم يستطع أن ينال من مال الجماعة إلا قرضاً، وأمانة الخازن منعته من السكوت على تأجيل القرض لا التنازل عنه، فلاحى الأمير وأغلظ عليه، ونسي Vloten أنه يتكلم عن سعد الصحابي الذي تعددت فضائله ومآثره، فاستدانته ـ وهو الوالي ـ برهان ساطع على نزاهته، ودليل حاجته وفاقته، وهو الذي كان يعيش عيشة الكفاف، ولم يستدن من أجل شهواته، ولا من أجل ليال حمراء.

ومن ذلك أيضاً: ما قرره Watt أن الصلات بين محمد وورقة بن نوفل كانت مستمرة، وأنه تعلم منه أشياء كثيرة، مع أن وثائق التاريخ تدل على أن اللقاء كان يتيماً، وليس في كلام ورقة ما يسمح بهذا الاستنتاج المبالغ فيه، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد اشتط في المبالغة حين قال: لقد تأثرت التعاليم الإسلامية اللاحقة كثيراً بأفكار ورقة، دون أن يبين مصداق ذلك.

وفي هذا السياق يأتي تشكيك بعض المستشرقين بالشعر الجاهلي، إذ ادعوا أنه منحول اعتماداً على أن بعض رواته ـ كخلف الأحمر(ت180هـ) كان يزيد فيه.

ج- **المنهج الفيلولوجي التفكيكي:**

تعني الفيلولوجيا "علم التحليل الثقافي للنصوص اللغوية المبكرة حيث تقوم أساسا على دراسة النصوص المكتوبة والمبكرة، وتحقيق نسبها، وتحليل محتواها الثقافي والحضاري، واستكشاف علاقتها بما سبقها من نصوص". فأساس هذا العلم هو الدراسة اللغوية التاريخية المقارنة للنصوص، وتتحدد معالم هذا المنهج بتفكيك القضية الكلية إلى جزئيات متعددة، ثم تعزل تلك الجزئيات عن ذلك المفهوم الكلي، فحكموا ـ مثلاً ـ على وضع المرأة المسلمة من خلال عناصر معزولة كالحجاب، وتعدد الزوجات، وعدم الاختلاط، إلى غير ذلك من هذه الأشياء التي تبدو سلبية، في إطار النظرة الجزئية السريعة المفصولة عن الرؤية الكلية لوضع المرأة في الإسلام، وبالمقابل تأتي النظرة الاستشراقية للمرأة الغربية في ضوء عناصر جزئية تبدو إيجابية في شكلها المفصول عن الإطار العام، كعلاقاتها المفتوحة مع الرجال، وحريتها غير المنضبطة، والنظرتان مخطئتان لقيامهما على وقائع جزئية لا تقدم تصوراً صحيحاً عن حال المرأة عند الجانبين،

كما سعى بلاشير إلى استخدام المنهج الفيلولوجي للتأصيل لفكرة تأثير القصص الكتابي في القرآن إلا أن العجيب في الأمر عنده هو التفوق الجمالي للقصص القرآني على نظيره الكتابيحيث قال: "وإذا ما قورن القصص القرآني ببعض الفصول

المشابهة في سفر التكوين المثقلة باللغو والاستطرادات ظهر أن القصص القرآني أعلى مرتبة بما لا يقاس فهو يتدرج برشاقة دون إشارات زائدة، تسيطر عليه فكرة مواسية ألا وهي أن العادل ينتصر بإيمانه ووفائه". وبهذا يظهر أن المناهج الحديثة تستطيع إيصال الباحث الموضوعي إلى الحقائق، إذا ابتعد عن المؤثرات الخارجية والداخلية.

ح- **منهج الشك والافتراض :**

بمقتضى هذا المنهج يشك الباحث في الواقعة التاريخية، أو ينفيها إذا اقتضى الأمر من غير أن يقدم دليلاً على ما ذهب إليه، ويقابل ذلك افتراض وقائع واستنتاجات معينة، ففي الحالة الأولى يشكك فيما هو أقرب إلى الحق، بينما يصدق في الحالة الثانية ما هو أقرب إلى الباطل، ويُكثِر هنا من استعمال "ربما" و"نستطيع أن نفترض" و"لعل" و"الاحتمال الأقرب"، يقول Watt معبراً عن ذلك : "إن الباحثين الغربيين قد شككوا في كل المراجع القديمة، حتى إن بعضهم لم يقبلوا سوى القرآن.....فإن صدق هذا لاستحالت علينا كتابة سيرة محمد"،وزعم Brockelman أننا لا نملك بينة يوثق بها عن حياة النبي الأولى غير آيات سورة الضحى، وبذلك يكون قد أغمض عينيه عما في كتب السيرة والسنة جملةً وتفصيلاً.

ونفى نولدكه (ت1930م) أن تكون فواتح السور من القرآن، مدعياً أنها رموز لمجموعات الصحف التي كانت عند المسلمين الأوائل، قبل أن يوجد المصحف العثماني، فحرم (الميم) رمز لصحف المغيرة، و(الهاء) لصحف أبي هريرة، و(الصاد) لصحف سعد، فهي إذا إشارات لملكية الصحف، ثم تركت في مواضعها سهوًا، ثم تطاول عليها الزمن فصارت قرآناً،وفي دراسة بلاشير للسيرة شكّك في أمورٍ منها: أن تاريخ الهجرة إلى الحبشة غير مضبوط، وطعن أيضاً في خبر المناظرة العقدية التي دارت في بلاط النجاشي، ورأى أن معجزة الإسراء والمعراج ضخّمت من قِبَل أصحاب السّير، وأن نتائج معركة بدر كانت هزيلة جداً بالنسبة للمسلمين.

وأما بالنسبة إلى الافتراض، فقد افترض بعضهم أن فكرة عالمية الرسالة جاءت فيما بعد، وزعم بلاشير أن معظم نصوص الوحي كانت عند وفاة النبي ε محفوظة في الصدور، أما المكتوب فلا يتجاوز بعض نسخ جزئية دونت بطريقة بدائية، يصعب قراءتها إلا إذا كان القارئ يعي النص المكتوب في ذاكرته، بينما يفترض بعضهم أن الحاجة دفعت الصحابة ـ بعد وفاة النبي ε إلى تدوين المصحف بأن اليوم الآخر يزداد بعداً، وأن النسخ وسيلة لجأ إليها النبي ε ليغير الأحكام التي بلغها سابقاً؛ لعدم تناسبها مع الأحداث التي عرضت له فيما بعد، وأن السور قد رتبت ـ في عهد أبي بكر ـ على حسب الطول ما خلا الفاتحة، وهي طريقة مصطنعة تماماً، وزعم (سفاري) أن النبيεكان يستصحب في عزلته في غار حراء بعض الخدم،ويفترض Goldziher أن القسم الأكبر من الحديث ليس إلا نتيجة للتطور الديني والسياسي في القرنين الأول والثاني، لأن الأحكام التي أتى بها القرآن الكريم قليلة؛ وبالتالي لا تفي بالحاجات التي تطلبها الوضع الجديد للإسلام بعد الفتوح

وليس ثمة داع لمناقشة هذه الافتراضات التخمينية التي لم تؤيد بأية رواية تاريخية؛ فهي ليست إلا إفراز ظنون جاهلية كانت عاجزة عن تصور إمكانية نزول وحي مستقل من السماء، أو ظنون طائفية متعصبة تتشبث ـ لسبب بات مكشوفاً ـ بالتصوير الجاهلي ذاته، ويكفي من ذلك أنه ليس بوسع أحد أن يعثر على رواية أو يقف على شاهد واحد ينفي أمية الرسول ε مثلاً، فهذه المقولة وأشباهها لا تعدو أن تكون نتاجاً طبيعياً لمنهج افتراضي يستعد أصحابه لطرح أي تصور يدور في ذهنهم، ولو كان عرياً عن أي سند تاريخي.

خ- **منهج البناء والهدم:**

في مرحلة البناء: يقوم المستشرق بالإطراء على الظاهرة التي يدرسها، أو على جوانب ثانوية منها، ثم يأتي دور الهدم، حيث يجرد تلك الظاهرة من أهم مقوماتها وأركانها على نحو يؤدي إلى سقوطها أو يكاد، فالمفكر الفرنسي غوستاف لوبونLebon(ت1931م) سطَّر في كتابه (حضارة العرب) أفكاراً صحيحة ومعتدلة عن الإسلام، وأشاد كثيراً بكتابه ونبيه ثم ما لبث ـ بعد جملة وافرة من الثناء ـ أن رمى النبي ε بالصرع والهوس، حيث قال: " ويجب عدّ النبي محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية، كأكبر مؤسس الديانات....فلم يكن ذوو المزاج البارد من المفكرين هم الذين ينشئون الديانات ويقودون الناس، وإنما أولو الهوس هم الذين مثلوا هذا الدور.... وهم الذين أقاموا الأديان، وهدموا الدول، وأثاروا الجموع ، وقادوا البشر، ولو كان العقل لا الهوس هو الذي يسود العالم، لكان للتاريخ مجرى آخر"، ثم يجعل القرآن من شواهد عبقريته، وهو دون كتب الهندوس قيمة، وينكر شموليته وأنه مؤقت بعصره، فلا يحقق حاجات الفرد في عصور لا حقة، بل يجعله سبب تخلف المسلمين. أما بلاشير ـ وفق هذا المنهج ـ فقد قبل بالمعطيات القرآنية وركز عليها، ولكنه من جانب آخر رفض تأريخية السيرة .

د- **منهج المطابقة والمقابلة:**

استخدم بعض المستشرقين هذا المنهج في تحقيق النصوص التراثية ونشرها، وقد برعوا في ذلك وأجادوا إجادة لا ينكر ها منصف، فكتب كثيرة لم تر النور إلا على أيديهم، وقد ساعدهم على ذلك تضلعهم بعدة لغات وإتقانها، وكذا اطلاعهم على آلاف النسخ المخطوطة، وارتحالهم للوقوف عليها ولا ينبغي أن يقصر اللسان على مدحهم في هذا الجانب؛ فقد عملوا على حفظها وصيانتها من التلف بعناية فائقة، وفهرستها فهرسة نافعة تصف المخطوط وصفاً دقيقاً، وبذلك وضع تحت تصرف

الباحثين بلا إجراءات معقدة، وقدر عددها في جامعاتهم ـ وكلها مفهرسة ـ مئات الآلاف، كما يحمد لهم صبرهم الدؤوب على البحث والتقصي، لكن هذه الطريقة لم تسلم من الخطأ، لأن بعضهم حاول تطويع تلك النصوص؛ لكي تخدم قضية آمن بها وسعى لتقريرها.

ثالثا: أراء المستشرقين حول القرآن الكريم

الشبه المثارة حول ظاهرة الوحي ومصدر القرآن الكريم

لقد أثار أعداء الإسلام من جاهليّين قُدامى ومستشرقين جدد الشبهات الكثيرة حول الوحي القرآني، وكانت تستهدف هذه الشبهات في الغالب تأكيد أنّ الوحي القرآني ليس مرتبطاً بالسماء وإنّما هو نابعٌ من ذات محمّدٍ الإنسان ρ، وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض هذه الشبهات في مواضع مختلفة، وردّد بعض المستشرقين هذه الشبهات وغيرها وحاولوا إضفاء طابع البحث والدراسة وسمات الموضوعيّة عليها، كما هي الطريقة المضلِّلة المتّبعة لديهم في مثل هذه الحالات.

1. الاخذ من مصادر داخلية

الشبهة الاولى: القرآن وحيٌ نفسيٌّ لمحمّدٍ ρ

يرى الماديّون من الغرب أنّ مسألة الوحي هي مسألة نفسيّة قد مرّ بها رسول الله ε لأنّهم يُنكرون عالم الغيب والأمور التي لا تثبت عندهم بمعاييرهم الخاصّة التي يستندون عليها، تلك المعايير التي تنفي عوالم ما وراء الطبيعة من عالم الروح وغيره، فقد قرّروا أنّ خلوات النبي -عليه الصلاة والسلام- في غار حراء وتفكّره المتواصل بخلق الله -تعالى- جعل قلبه يمتلئ بالوحدانية حتى أيقن أنّه هو النبي المنتظر، فتجلى له هذا الاعتقاد بالرؤيا ثم تطوّر الأمر فصار يعتقد أنّه يرى ملَكًا، ومصادره التي سيحدّث الناس بها هي تلك المعارف التي اكتسبها ممّا سبق، فهم يرون أنّ الوحي الذي كان يتحدّث عنه رسول الله ε كان أحاديث نفس تحدّثه به نفسه ليس إلّا، وليس هنالك ملَكٌ مُرسل من عند الله تعالى، كما أن منهم من يقول أنّ محمّداً ρ قد أدرك بقوّة عقله الذاتية، وممّا يتمتّع به من نقاءٍ وصفاءٍ روحيّ ونفسيّ، بطلان ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام، كما أدرك ذلك أيضاً أفرادٌ آخرون من قومه، وأنّ فطرته الزكيّة -إضافةً إلى بعض الظروف الموضوعيّة كالفقر-حالت دون أن يمارس أساليب الظلم الاجتماعي من الاضطهاد، وأكل المال بالباطل، أو الانغماس بالشهوات، وارتكاب الفواحش... وإنّه طال تفكيره من أجل إنقاذهم من ذلك الشرك القبيح، وتطهيرهم من تلك الفواحش والمنكرات. فمنازع نفسه العالية وسريرته الطاهرة ،وخياله الواسع وإحساسه العميق، وعقله الكبير، وذكاؤه الوقّاد، وذوقه السليم، مما كان لذلك التأثير بأن يتجلى في ذهنه ويُحْدِثَ في عقله الباطن الرؤى والاحوال الروحية فيتصور أن ما يعتقده إلهياً نازلا عليه من السماء بدون وساطة ، أو عن طريق رجل يتمثل له يلقنه ذلك، أو يسمعه يقول له شيئاً في المنام، والقرآن شيء من هذا الذي يراه ويتخيله وإنما ذلك نابع من نفسه، ومن عقله الباطن ثم صاغها بأسلوبه المؤثر، وخياله الخصيب نتيجة لخلواته الخاصة بغار حراء، وتأملاته العميقة.

مناقشة الشبهة:

وإذا أردنا أن ندرس هذه النظرية (نظرية الوحي النفسي)، لا نجدها تصمد أمام النقد والمناقشة العلميّتين، إذ يمكن أن يُلاحظ عليها من خلال أبعاد ثلاثة:

الأوّل: إنّ الدلائل التاريخية القطعية وطبيعة الظروف التي مرّ بها النبيُّ ρ تأبى التصديق بهذه النظرية وقبولها.

لقد ذكر محمد رشيد رضا ـ بصدد مناقشته للمقدّمات التأريخية وغيرها التي رتّبها (درمنغام) لعرض نظريّة الوحي النفسي ـ عشر ملاحظات، وسوف نقتصر على تلخيص بعضها:

1. إنّ أكثر المقدّمات التي بنى عليها أصحاب النظريّة نظريّتهم، تقوم على فرضية مسبقة غير مبرهنة وهي: أنّ الوحي القرآني ليس وحياً إلهيّاً منفصلاً عن الذات المحمّدية، الأمر الذي كان يدعو أصحاب النظرية إلى اختلاق الحوادث والأخبار، أو تخيّلها من أجل إكمال الصورة الكاذبة ووصل بعض الحلقات ببعضها الآخر. وأمّا دعوى أنّه في خلوته قد أحبّ أن يكون نبيًّا فلا أسهل من الرد عليها بقوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ الْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ القصص: ٨٦

2. فالنبي ρ لم يكن يرجو أن يكون نبيًّا، ولكنّ الله أعلم حيث يضع رسالته، كما إنّه لم يُعرف عن الرسول محمّدٍ ρ أنّه كان ينتظر أن يُفاجأ بالوحي، أو يأمل أن يكون هو الرسول المنتظَر؛ لينمو ويتطوّر هذا الأمل في نفسه، فيصبح واقعاً نفسيّاً، بالرّغم من تدوين كتب السيرة النبويّة لأدق الأحداث والتفصيلات عن حياة الرسول الشخصية .ولعلّ من القرائن التأريخية التي تشهد بكذب هذا الافتراض: هو ما ذكرته كتب السيرة من اضطراب النبي ـ في البداية ـ وخوفه حين فاجأه الوحي في غار حراء.

3. إنّ هذه النظرية تفرض أن يكون إعلان النبوّة نتيجة مرحلةٍ معيّنةٍ من التكامل العقلي والنفسي، ونتيجة مراحل طويلةٍ من المعاناة والتفكير والتأمّل والحساب، وهذا يستلزم بطبيعة الحال أن ينطلق الرسول في اللحظة الأُولى من دعوته إلى طرح مفاهيمه وأفكاره ومناهجه عن الكون والحياة والمجتمع بجوانبه المتعدِّدة؛ لأنّ المفروض أنّ الصورة كانت متكاملة عنده نتيجة التفكير الطويل ودراسة الكتب وأعمال الأنبياء السابقين، مع أنّ التأريخ يؤكِّد أنّ أُسلوب الدعوة وطريقتها كانا يختلفان عن ذلك تماماً، وأنّ البداية كانت هي الخوف والاضطراب ثمّ الدعوة إلى التوحيد، ومن ثمّ الانطلاق إلى المجالات الأُخرى سواء على مستوى المفاهيم أو الموقف بشكلٍ تدريجيٍّ مع ما كان يتخلّل ذلك من حالات ركودٍ وانقطاعٍ في الوحي.

ب ـ المحتوى الداخلي للظاهرة القرآنية يناقض نظريّة الوحي النفسي:

إنّ للمحتوى الداخلي للظاهرة القرآنية وما تتّصف به من مواصفات، ولسعة النظرية القرآنية وآفاقها المتعدِّدة ومجالاتها المتشعّبة، أهميّة كبرى في رفض نظرية الوحي النفسي، إذ إنّ هذه المواصفات وهذا الاتساع والشمول لا يتّفق مع طبيعة المصادر التي تفرضها النظرية، ويتّضح ذلك عندما نلاحظ الأُمور التالية:

1. إنّ الموقف العام للقرآن الكريم تجاه الديانتين اليهودية والمسيحية هو موقف المصدِّق لهما والمهيمن عليهما، فقد صدَّق القرآن الكريم الأصل الإلهي لهاتين الديانتين وارتباطهما بالمبدأ الأعلى، ولكنّه في نفس الوقت جاء مهيمناً ورقيباً وحاكماً على ما فيهما من ضلالات. وجاءت هذه الرقابة دقيقةً شاملة، فلم تترك مفهوماً أو حكماً أو حادثةً إلاّ ووضعت المقياس الصحيح له.

ولا يمكن أن نتصوّر محمّداً ρ وهو يأخذ عن أهل الكتاب ويراهم قد أخذوا عن الوحي الإلهي، ومع ذلك يتمكّن من أن يصفهم بالجهل والتحريف والتبديل بمثل هذا اليقين والثبات، ثم يوضّح الموقف الصحيح في المسائل الكبرى التي اختلفوا فيها أو خالفوا الواقع الصحيح للديانة، ثمّ تأتي نظريّته بعد ذلك كاملةً شاملةً ودقيقة، ليس فيها تناقضٌ ولا اختلاف! ولكنّ الحقيقة هي أنّ محمّداً لم يكن قد أخذ منهم شيئاً، وإنّما تلقّى كلّ ذلك عن الوحي الإلهي الذي جاء مصداقاً لما سبقه من الوحي ومهيمناً على الانحراف والتّحريف معاً.

ونجد القرآن أيضاً يخالف التوراة والإنجيل في بعض الأحداث التأريخية، فيذكرها بدقّةٍ متناهيةٍ ويتمسّك بها بإصرار، في الوقت الذي كان بإمكانه أن يتجاهل بعضها على الأقل، تفادياً للاصطدام بالتوراة والإنجيل. ففي قصّة موسى، يشير القرآن إلى أنّ التي كفلت موسى هي امرأة فرعون، مع أنّ سِفْر الخروج من التوراة يؤكِّد أنّها كانت ابنته. كما أنّ القرآن يذكر غرق فرعون بشكلٍ دقيق، ولا يتجاهل حتّى مسألة نجاة بدن فرعون من الغرق مع موته وهلاكه: ﴿ٱلۡـَٰٔـَٰنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾ يونس: ٩٢

2. في الوقت الذي نجد التوراة تشير إلى غرق فرعون بشكلٍ مبهمٍ، ويتكرّر نفس الموقف في قضيّة العِجْل؛ حيث يذكر التوراة أن الذي صنعه هو هارون، وفي قصّة ولادة مريم للمسيح (عليهما السلام) وغيرهما من القضايا.

ولا يصح لمحمّدٍ ρ وهو الإنسان الصادق الأمين الذكي أن يذكر هذه التفاصيل التي لا وجود لها في التوراة والإنجيل، فيصطدم بالتوراة والإنجيل دون سببٍ معقول، لولا أن يكون قد تلقّى ذلك عن طريق الوحي الإلهي الذي لا يستطيع مخالفته.

3- إنّ سعة التشريع الإسلامي وعمقه وشموله للمجالات المختلفة من الحياة، مع دقّة التفاصيل التي تناولها، والانسجام الكبير بين هذه التفصيلات، برهان واضح على تلقّيه ذلك عن طريق الوحي؛ إذ لم يكن محمّدٌ ـ وهو الإنسان الأُمّي، الذي كان يعيش في ذلك العصر المظلم، كما أنّه قضى أكثر حياة دعوته في خِضَمّ الصراع الاجتماعي ـ ليتمكن بصفته إنساناً أن يفعل ذلك لولا أن يكون قد تلقّى ذلك عن طريق الوحي والسماء.

ج ـ موقف النبي من الظاهرة القرآنية شاهد على رفض نظريّة الوحي النفسي:

إنّ موقف النبي محمّد ρ هو من أفضل الشواهد على بطلان نظريّة الوحي النفسي، فقد كان النبيُّ ρ يدرك بشكلٍ واضح الانفصال التام بين ذاته المتلقّية والذات الإلهيّة الملقية من أعلى. وهذا الإدراك هو حقيقة الوحي الذي أشرنا إليه سابقاً، وقد صوّر الرسول ρ هذا الوعي والإدراك في مناسبات متعدِّدة، وأوضحه للمسلمين فيما روى عنه، حيث قال: (أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه عليّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثّل لي الملك رجلاً فيكلّمني فأعي ما يقول).

الشبهة الثانية: إصابة النبي بالصرع

اخترع أعداء الإسلام كذبة وصدّقوها وبثّوها في بعض كتبهم يقولون فيها إنّه ما من وحي كان ينزل على رسول الله ε ولكن كان النبي ε مصابًا بالصرع -حاشاه- وأنّ الذي يظنّه الناس وحيًا هو نوبات صرع كان يغرق بها عليه الصلاة والسلام، وهذا الكلام كذِبٌ بالجملة ليس له مصدر، بل مصدره الوحيد هو عقل مريضٌ حاقدٌ على انتشار الإسلام كالنار في الهشيم، ... والرد على هذه الشبهة والكذبة يأتي من طرائق كثيرة، منها:

-أنّهم يستندون على بعض الحالات التي كانت تصيب رسول الله ρ عند تلقّيه الوحي من جهد ومشقّة، ولعلّ أشدّها تلك الحالة عندما يأتيه في مثل صلصلة الجرس، إذ اخرج البخاريّ في صحيحه أنّ رسول الله ε قال: "أَحْيانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ

الجَرَسِ، وهو أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فيُفْصَمُ عَنِّي وقدْ وعَيْتُ عنْه ما قالَ"، وهذه الشدّة التي كان يجدها رسول الله ρ تأتي -كما ذهب علماء المسلمين- من محاولة فهم النبي ρ الكلام الذي هو كصلصلة الجرس؛ فالذي يتحدّث بكلام مفهوم للجميع يكون الفهم عنه أسهل من الذي يتحدّث بكلام كصلصلة الجرس، فالفائدة من هذه الشدة رفعٌ للدرجات وتقرّبٌ أكثر من الله سبحانه، ولذلك كان يجد من الجهد ما يجعل جبينه يتفصّد عرقًا في اليوم شديد البرد كما تروي أمّ المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- إذ قالت: "ولقد رأَيْتُه ينزِلُ عليه في اليومِ الشَّاتي الشَّديدِ البردِ فينفصِمُ عنه وإنَّ جبينَه ليتفصَّدُ عرَقًا"، ولكن ربّما فاتهم أنّ للوحي حالات أخرى لا يصيب النبي ε شدّة معها، وتلك الحالات كثيرة تُنظر في مظانّها ومنها حالة تشكّل الملك جبريل υ بصورة رجل يراه ويسمعه كلّ من حول النبي عليه الصلاة والسلام.

– لو كان رسول الله ε مصابًا بالصّرع لما كانت هذه التهمة لتفوت كفّار الجاهليّة الذين آذوه ووصفوه بصفات كلّها كذب ككذبة المستشرقين هذه، مع العلم أنّ مرض الصّرع كان معروفًا في الجاهليّة وصدر الإسلام، ومن ذلك الحديث الذي يرويه ابن عبّاس أنّ امرأة أتت النبي ρ فقالت: "إنِّي أُصْرَعُ، وإنِّي أتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي"، وواضح أنّ الصّرع معروف وهذه المرأة تعلم مرضها، ثمّ إنّهم يركّزون على مرحلة النبوّة ويتناسون ما قبلها، ولو كان النبي ρ مصابًا بالصّرع فلماذا لم يُذكر ذلك عنه في مرحلة ما قبل النبوة، وخيرُ ردٍّ على كذبة الإصابة بالصرع هو ما يدعمه العلم الذي يختبئ وراءه أولئك المستشرقون الصليبيّين، فالعلم له في مريض الصرع آراء منها:

– أنّ المريض بالصرع يبرد جسمه والنبي -عليه الصلاة والسلام- بعكس ذلك؛ فجبينه يتفصّد عرقًا في اليوم شديد البرد.

– أنّ المريض بالصرع إذا أتته نوبة صرع يتمايل ويتمدّد على الأرض ولا يملك من أمر نفسه شيئًا، على عكس ما كان يحصل مع النبي ρ إذ كان يأتيه الوحي وهو على دابته أو بين أصحابه ولا يحدث معه شيء ممّا يظهر على المصروع،

– أنّ المصروع يقع ما في يده والنبي -عليه الصلاة والسلام- لا يحدث معه ذلك، إذ تروي أم المؤمنين عائشة قالَتْ:"... فأوْحَى اللهُ إلَيْهِ ثُمَّ رُفِعَ عنْه، وإنَّ العَرْقَ في يَدِهِ ما وضَعَهُ..."، فالعرق -وهو العظم الذي ذهب عنه أغلب اللحم- لم يسقط من يده، بل إنّه قد أوحي إليه ولم يقع العظم من يده وتابع طعامه بعدها .

– المصروع لا يذكر ما حدث معه على عكس النبي ε

– والمصروع يهذي بكلام غير مفهوم بينما يأتي رسول الله ρ بالكلام الجليل والحكمة والمواعظ والأحكام والقرآن

– المصروع يصفرّ وجهه بينما رسول الله ρ يصبح وجهه أحمر ...

وبذلك يتّضح جليًّا الافتراءات التي يسوقها أولئك القوم للنبي ρ التي يريدون من ورائها إنكار ظاهرة الوحي، والله أعلم .

ب: الأخذ من مصادر خارجية

شاع عند المستشرقين فكرة اقتباس النبي ρ من مصادر خارجية في كتابته للقرآن الكريم كان من أن هذه المصادر أنّ النبي -عليه الصلاة والسلام- هو تأثره بالوجود اليهودي والنصراني في منطقته، فقد كان يخرج مع عمه أبي طالب في التجارة، وكان يسمع في طريقه من الأعراب الذين يسكنون ديار الأقوام البائدة كثمود ومدين أخبارهم، وكذلك قد لقي الراهب بحيرى الذي كان نصرانيًّا موحّدًا من أتباع آريوس، ولا بدّ أن يكون النبي -عليه الصلاة والسلام- قد تعلم منه . ولم يهملوا علاقة النبي -عليه الصلاة والسلام- بورقة بن نوفل أحد النصرانيين الموحدين في الجاهلية، ومن الشبهات التي أثاروها استعانته بالشعر الجاهلي والموروثات الجاهلية في تكوين دينه الجديد

.فقد استفاد من بعض الفصحاء الذين تنصّروا في الجاهلية كقُس بن ساعدة الإيادي وأميّة بن أبي الصلت الذين كانوا يسمعون من الرهبان والقساوسة قرب ظهور نبي العرب فاستفاد من هذه البشارة وأخذ الدعوة لنفسه .زعموا أنّ هناك يهودًا ونصارى في مكة من العبيد والخدم وكانوا يتحدثون عن قصص الأولين فاستفاد النبي -عليه الصلاة والسلام- من قصصهم . ذكروا أنّ أهل مكة كانوا يمرّون في رحلاتهم في الصيف والشتاء إلى اليمن والشام بدور عبادة أهل الكتاب، فاستفاد النبي -عليه الصلاة والسلام- ممّا سمعه فتعلّقت روحه بفكرة النبوة وظهر ذلك على لسانه بالدعوة....

.والحقّ أنّ هذه الشبهة أوهى من بيت العنكبوت، والرد عليها يكون كما يأتي بحسب ترتيبها أعلاه:

1. الأمر الأوّل: إنّ الثابت في السيرة النبوية أنّ النبي -عليه الصلاة والسلام- لم يرافق أبا طالب سوى مرة واحدة، والراهب بحيرى حين شاهد الغمامة تظلّله ρ فإنّه سارع في تحذير أبي طالب من اليهود الذين سيؤذون النبي ρ إذا حظوا به، وكان عمر النبي ε تسع أو اثني عشرة سنة، وفي هذه الرحلة كان معه جماعة من قريش فَلِمَا لم يتهموه بأنه أخذه من بحيرى، وإذا كان بحيرى من ألف القرآن فلم لم يدّع النبوة فهو أولى بها، وكيف لطفل عمره صغير أن يحفظ ما أخذه في لقاء واحد عابر ويحتفظ به ثم ينتظر حتى يبلغ الأربعين ليخبر الناس به.

وأمّا أنّه قد التقى بساكني أراضي مدين وثمود وغيرها فليس بصحيح فهذه الأرض لا تقع على الطريق الاعتيادي لمرور القوافل التجارية الى الشام، كما أنّ التاريخ لم يذكر لنا مرور النبيّ بها.

- الأمر الثاني: علاقة ρ بورقة لم تكن كما ذكروا، ولكنّه التقى به مرّة واحدة فقط حين هبط عليه الوحي في غار حراء، فأخذته خديجة أم المؤمنين -رضي الله عنها- إلى قريبها ورقة بن نوفل، فبشّره بأنّ هذا هو الناموس -الوحي- الذي كان يهبط على الأنبياء قبله، وكذلك أخبره أنّ قومه سيعادونه ويخرجونه من دياره، فقال عليه الصلاة والسلام" :أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ"، قالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ ما جِئْتَ به إلَّا عُودِيَ، وإنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ ورَقَةُ أنْ تُوُفِّيَ"، وهذه المرة الوحيدة التي التقى بها النبي ρ ورقة، وتوفّي بعدها وكان شيخًا طاعنًا في السن، ولا يُعقل أنّ لقاء خاطفًا كهذا سيكون له أثرٌ كبير في حياة النبي ρ وسيُثري معلوماته ويجعل من ذلك قرآنًا كما يقولون .

-الأمر الثالث: أوّلًا قسّ بن ساعدة كان من المتحنّفين الموحّدين ولم يكن نصرانيًّا، وقد مات قبل البعثة بزمن طويل، وأمّا أميّة بن أبي الصلت فقد كان من الحنيفيين الموحّدين، ولكنّه في آخر حياته لمّا سمع باقتراب ظهور النبي العربي لبس مُسوح الرهبان وطمع في أن يكون هو النبي، ولكن لمّا بُعث النبي ρ أخذه الحقد والحسد ولم يُسلم، وعندما سمع النبي ρ شيئًا من شعره قال: "وكادَ أُمَيَّةُ بنُ أبِي الصَّلْتِ أنْ يُسْلِمَ"،، كما أن أبناء أمية بن أبي الصلت وقبيلته قد دخلوا الإسلام، فلو كانوا يعلمون أن محمدا قد أخذ عن أبيهم فكيف يصدقون الرسول ويؤمنون به.

قد جاء بالقرآن من مجتمعه الوثني الجاهل فهذا بعيد لما ورد ε- أن النبي قد جاء بالقرآن من مجتمعه: فإمّا أن يكون النبي . من صفات هذا المجتمع في كثير من آيات القرآن الكريم، منها -مثلًا- ما ورد في سورة النحل في قوله تعالى: ﴿ بي تر تن تى تي ﴾ النحل: ٢٠ – ٢١، وأيضًا ما ورد في جهلهم قوله تعالى عن عاداتهم التي فيها كمّ بالغ من الجهل والتخلّف، فيقول تعالى ﴿ لخ لم لى لي ﴾ ﴿ نم نى ﴾ ﴿ بن بى بي تر ﴾ ﴿ تن تى تي ﴾ النحل: ٥٥ ـ ٥٩

وأمّا أنّه قد تعلّمه من اليهود والنصارى فلا معنى لهذا الكلام لأنّ كتب اليهود والنصارى لم تُنقل إلى العربيّة إلّا بعد وفاة النبي ε بقرون، وأيضًا فوقتُ النبي ε قبل البعثة كان بين التجارة ورعي الأغنام فلم يكن عنده وقت ليجلس إلى أهل الكتاب ليتعلّم منهم كما يدّعي أولئك القوم، وغير ذلك فهذه التهمة قديمة قد ذكرها كفّار الجاهليّة حين قالوا إنّ القرآن أساطير الأوّلين، يقول تعالى في سورة الفرقان: ﴿ بر بن بى بي تر تن ﴾ الفرقان: ٥، فيقول الإمام ابن كثير معلّقًا على هذه الكذبة بما يدفعها: "إنّه قد عُلِمَ بالتواتر وبالضرورة أنّ محمّدًا رسول الله لم يكن يعاني شيئًا من الكتابة لا في أوّل عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أوّل مولده إلى أن بعثه الله نحوًا من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه وصدقه وبرّه وأمانته ونزاهته من الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنّهم لم يكونوا يسمّونه في صغره إلى أن بُعِثَ إلّا الأمين؛ لما يعلمون من صدقه وبرّه، فلمّا أكرمه الله بما أكرمه به، نصبوا له العداوة ورموه بهذه الأقوال التي يعلمُ كلّ عاقلٍ براءته منها..."، والله أعلم.

كما يشهد التاريخ بعدم تواجد اليهود في مكة وحواليها، ولا عن انتشار ثقافتها أو علمها، بالرغم من وجود اليهود في المدينة ومحاورتهم للنبي ε، أما النصارى فقد كانوا في مكة ولكن ليسوا من أهلها، فهم جاؤوها بسبب التجارة أو الصناعة، وقد سبقهم المشركون بها حين اتهموا الرسول εبأنّه يقف عند قين روميّ يصنع السيوف فيقف معه النبي ρ ويتحدّث معه، فقال المشركون هذا القين يعلّم النبي ρ القرآن، وهي شبهة ردها القرآن الكريم عليهم ﴿ لخ لم لى لي ﴾ ﴿ نم نى ﴾ النحل: ١٠٣

ولم يكن لليهود أي تأثير على العرب، ولو كان لهم تأثير لأثّروا بالأوس والخزرج، فلم يتهوّد من العرب إلّا قليل، والذين تنصّروا هم أقل من ذلك، وكان ما يعرفونه هو ما يعرفه اليهود والنصارى آنذاك من معلومات مشوّهة مُحرّفة لا تتناسب مع الأمور الصادقة التي جاء بها القرآن

كما أن الوحي الذي هبط على رسول الله ρ- قد جاءه بالعبادات والتشريعات والعقائد والمعاملات والحدود والاقتصاد والسياسة والأمور الجنائية وغير ذلك الكثير، فلا يُعقل أن يكون كلّ ذلك من لقاءات عابرة على هامش الحياة هذا إن كانت تلك اللقاءات صحيحة وقد حدثت فعلًا، والله غالب على أمره ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون، والله أعلم

رابعا: شبهات المستشرقين حول السنة النبوية

إن الله تعالى قد منَّ على عباده بإرسال محمد عليه الصلاة والسلام، وإنزال القرآن الكريم عليه، وإيتائه السنّة التي هي صنو القرآن الكريم من حيث حجيتها ومنزلتها في التشريع ﴿ لج لح لخ ﴾ آل عمران: ١٦٤فالكتاب هو القرآن العظيم، والحكمة هي السنَّة النبوية الثابتة عن رسول الله

ε. من أجل ذلك عمل أعداء الاسلام على تشويه صورة السنة وإثارة الشبهات حولها حتى يشككوا المسلمين فيها ويبعدونهم عن هذا المعين ومن أبرز هذه الشبهات[18]:

الشبهة الأولى : عدم تدوين السنة

من الشبهات التي ادعاها بعض غلاة المستشرقين من قديم ، وأقام بناءها على وهم فاسد هي أن الحديث بقي مائتي سنة غير مكتوب ، ثم بعد هذه المدة الطويلة قرر المحدثون جمع الحديث وقد ردد عدد من المستشرقين هذه الشبهة منهم جولد زيهر وشبرنجر ، ودوزي ، فقد عقد "جولد زيهر" فصلاً خاصاً حول تدوين الحديث في كتابه " دراسات إسلامية " وشكك في صحة وجود صحف كثيرة في عهد الرسول ε ، ورأى " شبرنجر " في كتابه " الحديث عند العرب " أن الشروع في التدوين وقع في القرن الهجري الثاني ، وأن السنة انتقلت بطريق المشافهة فقط، أما " دوزي " فهو ينكر نسبة هذه " التركة المجهولة " - بزعمه - من الأحاديث إلى الرسول ε.

وقد أراد المستشرقون من وراء هذه المزاعم إضعاف الثقة باستظهار السنة وحفظها في الصدور، والتشكيك في صحة الحديث واتهامه بالاختلاق والوضع على ألسنة المدونين ، وأنهم لم يجمعوا من الأحاديث إلا ما يوافق أهواءهم، وصاروا يأخذون عمن سمعوا الأحاديث، فصار هؤلاء يقول الواحد منهم : سمعت فلاناً يقول سمعت فلاناً عن النبي ε، وبما أن الفتنة أدت إلى ظهور الانقسامات والفرق السياسية، فقد قامت بعض الفرق بوضع أحاديث مزورة حتى تثبت أنها على الحق ، وقد قام علماء السنة بدراسة أقسام الحديث ونوعوه إلى أقسام كثيرة جداً ، وعلى هذا يصعب الحكم بأن هذا الحديث صحيح، أو هذا الحديث موضوع .

ويمكن الرد هذه الشبهة من عدة وجوه

1. أن تدوين الحديث قد بدأ منذ العهد الأول في عصر النبي ε، وشمل قسماً كبيراً من الحديث، وما يجده المطالع للكتب المؤلفة في رواة الحديث من نصوص تاريخية مبثوثة في تراجم هؤلاء الرواة، تثبت كتابتهم للحديث بصورة واسعة جداً، تدل على انتشار التدوين وكثرته البالغة.

2. أن تصنيف الحديث على الأبواب في المصنفات والجوامع مرحلة متطورة متقدمة جداً في كتابة الحديث، وقد تم ذلك قبل سنة 200 للهجرة بكثير، فتم في أوائل القرن الثاني، بين سنة 120-130 هـ، بدليل الواقع الذي بين لنا ذلك، فهناك جملة من هذه الكتب مات مصنفوها في منتصف المائة الثانية، مثل جامع معمر بن راشد(154)، وجامع سفيان الثوري(161) ، وهشام بن حسان(148)، وابن جريج (150)، وغيرها كثير.

3. أن علماء الحديث وضعوا شروطاً لقبول الحديث، تكفل نقله عبر الأجيال بأمانة وضبط، حتى يُؤدَّى كما سُمِع من رسول الله ε، فهناك شروط اشترطوها في الراوي تضمن فيه غاية الصدق والعدالة والأمانة ،مع الإدراك التام لتصرفاته وتحمل المسئولية، كما أنها تضمن فيه قوة الحفظ والضبط بصدره أو بكتابه أو بهما معاً، مما يمكنه من استحضار الحديث وأدائه كما سمعه، ويتضح ذلك من الشروط التي اشترطها المحدثون للصحيح والحسن والتي تكفل ثقة الرواة، ثم سلامة تناقل الحديث بين حلقات الإسناد، وسلامته من القوادح الظاهرة والخفية، ودقة تطبيق المحدثين لهذه الشروط والقواعد في الحكم على الحديث بالضعف لمجرد فقد دليل على صحته، من غير أن ينتظروا قيام دليل مضاد له .

4. أن علماء الحديث لم يكتفوا بهذا، بل وضعوا شروطاً في الرواية المكتوبة لم يتنبه لها أولئك المتطفلون، فقد اشترط المحدثون في الرواية المكتوبة شروط الحديث الصحيح، ولذلك نجد على مخطوطات الحديث تسلسل سند الكتاب من راوٍ إلى آخر حتى يبلغ مؤلفه، ونجد عليها إثبات السماعات، وخط المؤلف أو الشيخ المسمَع الذي يروي النسخة عن نسخة المؤلف أو عن فرعها، فكان منهج المحدثين بذلك أقوى وأحكم وأعظم حيطة من أي منهج في تمحيص الروايات والمستندات المكتوبة.

5. أن البحث عن الإسناد لم ينتظر مائتي سنة كما وقع في كلام الزاعم، بل فتش الصحابة عن الإسناد منذ العهد الأول حين وقعت الفتنة سنة 35 هجرية لصيانة الحديث من الدس، وضرب المسلمون للعالم المثل الفريد في التفتيش عن الأسانيد، حيث رحلوا إلى شتى الآفاق بحثاً عنها واختباراً لرواة الحديث، حتى اعتبرت الرحلة شرطاً أساسياً لتكوين المحدث

6. أن المحدثين لم يغفلوا عما اقترفه الوضاعون وأهل البدع والمذاهب السياسية من الاختلاق في الحديث، بل بادروا لمحاربة ذلك باتباع الوسائل العلمية الكافلة لصيانة السنة، فوضعوا القيود والضوابط لرواية المبتدع وبيان أسباب الوضع وعلامات الحديث الموضوع.

18انظر: الرد على شبهات المستغربين والمستشرقين حول السنة النبوية المطهرة، محمد حافظ الشريدة، أستاذ العقيدة الإسلامية في جامعة النجاح الوطنية ، نابلس ـ فلسطين،2011م

7. أن هذا التنوع الكثير للحديث ليس بسبب أحواله من حيث القبول أو الرد فقط، بل إنه يتناول إضافة إلى ذلك أبحاث رواته وأسانيده ومتونه، وهو دليل على عمق نظر المحدثين ودقة بحثهم، فإن مما يستدل به على دقة العلم وإحكام أهله له تقاسيمه وتنويعاته، بل لا يُعد علماً ما ليس فيه تقسيم أقسام وتنويع أنواع ؟. فظهر بذلك تهافت هذه الشبهة وبعدها عن الموضوعية والمنهجية.

الشبهة الثاني: حفظ السنة

من الشبهات التي رددها أذناب المستشرقين قولهم : "لو كانت السنة ضرورية لحفظها الله كما حفظ القرآن في قوله تعالى :{ إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون }، ولأمر النبيε بكتابتها كما أمر بكتابة القرآن. " وقولهم في الحديث الذي يقول فيه النبي ε(ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه)، "لو كان هذا الحديث صحيحاً لما نهى النبيε عن كتابة السنة، ولأمر بتدوينها كما دون القرآن ، ولا يمكن أن يدع نصف ما أوحي إليه بين الناس بغير كتابة، ولا يكون حينئذ قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة كاملة إلى أهلها، ولماذا ترك الصحابة نصف الوحي ولم يدونوه، فبإهمالهم له يصبحون جميعاً من الآثمين"

الرد على هذه الشبهة و تفنيدها:

إن الله عز وجل كما أراد لهذه الشريعة البقاء والحفظ ، أراد سبحانه أيضاً ألا يكلف عباده من حفظها إلا بما يطيقون ولا يلحقهم فيه مشقة شديدة ، فمن المعلوم أن العرب كانوا أمة أمية ، وكان يندر فيهم الكتبة ، وكانت أدوات الكتابة عزيزة ونادرة ، حتى إن القرآن كان يكتب على جريد النخل والعظام والجلود ، وقد عاش النبي ρ بين أصحابه بعد البعثة ثلاثًا وعشرين سنة ، ولهذا كان التكليف بكتابة الحديث كله أمراً في غاية الصعوبة والمشقة ، لأنه يشمل جميع أقواله وأفعاله وأحواله وتقريراته ρ ولِما يحتاجه هذا العمل من تفرغ عدد كبير من الصحابة له، مع الأخذ في الاعتبار أن الصحابة كانوا محتاجين إلى السعي في مصالحهم ومعايشهم، وأنهم لم يكونوا جميعا يحسنون الكتابة، بل كان الكاتبون منهم أفراداً قلائل، فكان تركيز هؤلاء الكتبة من الصحابة على كتابة القرآن دون غيره حتى يؤدوه لمن بعدهم تامًا مضبوطًا لا يُنْقص منه حرف .

ومن أجل ذلك اقتصر التكليف على كتابة ما ينزل من القرآن شيئاً فشيئاً حتى جمع القرآن كله في الصحف . وكان الخوف من حدوث اللبس عند عامة المسلمين فيختلط القرآن بغيره - وخصوصاً في تلك الفترة المبكرة التي لم يكتمل فيها نزول الوحي - أحد الأسباب المهمة التي منعت من كتابة السنة . ثم إنه لم يحصل لحفاظ السنة في عهد الصحابة ما حصل لحفاظ القرآن، فقد استحرَّ القتل بحفاظ القرآن من الصحابة، أما السنة فإن الصحابة الذي رووا الحديث عن رسول الله ρ كانوا كثر، ولم يحصل أن استحر القتل فيهم قبل تلقي التابعين عنهم.

ومن الأسباب أيضاً أن السنة كانت متشعبة الوقائع والأحداث فلا يمكن جمعها كلها بيقين، ولو جمع الصحابة ما أمكنهم فلربما كان ذلك سبباً في رد من بعدهم ما فاتهم منها ظناً منهم أن ما جمع هو كل السنة . ثم إن جمعها في الكتب قبل استحكام أمر القرآن كان عرضة لأن يُقبِل الناس على تلك الكتب، ويدعوا القرآن فلذلك رأوا أن يكتفوا بنشرها عن طريق الرواية، وبعض الكتابات الخاصة

أضف إلى ذلك أن القرآن يختلف عن السنة من حيث أنه متعبد بتلاوته، معجز في نظمه ولا تجوز روايته بالمعنى، بل لا بد من الحفاظ على لفظه المنزل، فلو ترك للحوافظ فقط لما أمن أن يزاد فيه حرف أو ينقص منه، أو تبدل كلمة بأخرى، بينما السنة المقصود منها المعنى دون اللفظ، ولذا لم يتعبد الله الخلق بتلاوتها، ولم يتحداهم بنظمها وتجوز روايتها بالمعنى، وفي روايتها بالمعنى تيسير على الأمة وتخفيف عنها في تحملها وآدائها .

وقد بلَّغ ρ الدين كله وشهد الله له بهذا البلاغ فقال سبحانه : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ المائدة: ٦٧، ووجود السنة بين الأمة جنباً إلى جنب مع القرآن الكريم فيه أبلغ دلالة على تبليغ الرسول ρ إياها لأمته وبالتالي لم يضع نصف ما أوحاه الله إلى نبيه ρ كما زعم الزاعمون، بل الجميع يعلم أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتمتعون بحوافظ قوية ، وقلوب واعية ، وذكاء مفرط ، مما أعانهم على حفظ السنة وتبليغها كما سمعوها، مستجيبين في ذلك لحث نبيهم ρ لهم في الحديث الذي رواه الترمذي و غيره بقوله (نضر الله امرءاً سمع مني مقالة فحفظها فأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع) فتم ما أراده النبي ρ من حفظ السنة وتبليغها ، ويكون بذلك ρ قد بلغ دين الله عز وجل كاملاً ولم ينقص منه شيئاً.

الشبهة الرابعة: السنة ليست مصدرا للتشريع

خلاصة هذه الشبهة قولهم: إن السنة لم تكن شرعاً عند الرسول ε ولم يقصد النبي ε أن تكون سنته مصدراً تشريعياً للدين ،وما قال شيئاً أو فعله بقصد التشريع ، ولم يرد النبي ε في حياته أن يكون ثمة مصدر تشريعي سوى القرآن المجيد بل كان مصدر التشريع عند الرسول ε هو القرآن وحده وكذلك فهم الصحابة رضوان الله عليهم وجاء عهد التابعين الذين بدأت فيه فتنة القول بالسنة وأنها مصدر من مصادر التشريع وكانت تلك قاصمة الظهر بالنسبة للدين حيث دخل فيه ما ليس منه واختلط

بالوحي الصحيح الخالص الذي هو القرآن ما ليس من الوحي بل هو كلام البشر التي هي السنة النبوية وهم يزعمون أن لهم أدلة على ذلك وهي :

- أن النبي εقد أمر أصحابه بكتابة القرآن الكريم وحضهم على ذلك ونهى أصحابه عن كتابة شيء من السنة قولاً كانت أو فعلا وذلك قوله ε (لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه)
- أن الصحابة رضوان عليهم عرفوا من النبي εأن السنة ليست شرعاً فأهملوا كتابتها وحفظها رغم اهتمامهم الشديد بكتابة القرآن المجيد على كل ما يصلح أن يُكْتب عليه .
- أن كبار الصحابة رضوان الله عليهم ومنهم الخلفاء الراشدون كانوا يكرهون رواية الأحاديث ويحذرون منها وكان عمر رضي الله عنه يهدد رواة الحديث ويتوعدهم وقد حبس عمر بن الخطاب عدداً من الصحابة بسبب روايتهم للحديث تنفيذاً لوعيده وتهديده إياهم بعدم رواية الحديث .

الرد على الشبهة وتفنيدها : يمكن أن نرد على هذه الشبهة في عدة نقاط :

1- أما قولهم بأن الرسول ε نهى عن كتابة الحديث، بينما حضَّ على كتابة القرآن وحفظه وكان له ε كتبة القرآن فقول مبالغ فيه ويقوم على التدليس، وذكر بعض الحق وإخفاء البعض، وليس من شك في أن القرآن المجيد قد لقي من العناية بكتابته وحفظه ما لم يكن للسنة النبوية فهو مصدر الدين الأول، وهو أعلى من السنة منزلة وقداسة، وهو أحق بالعناية والاهتمام بكتابته وحفظه، لذلك حظي القرآن من العناية بما لم تحظ به السنة، وبخاصة تدوينها وكتابتها والأسباب التي جعلت الصحابة يهتمون بكتابة القرآن فوق اهتمامهم بكتابة السنة كثيرة. منها :

- أن القرآن الكريم محدود بحدود ما ينزل به جبريل على قلب النبي ε فكتابته والإحاطة به أيسر، وهم على ذلك أقدر، أما السنة النبوية من أقوال الرسول ε وأفعاله فكثيرة ومتشعبة، تتضمن أقواله عليه السلام وأفعاله اليومية وعلى مدى ثلاث وعشرين سنة عاشها ε بينهم،وهذا أمر يشق كتابته وتدوينه وبخاصة إذا أخذنا في الاعتبار ندرة أو قلة الكاتبين بين الصحابة رضوان الله عليهم
- ومنها : أن كتابة القرآن ضرورة يفرضها ويحتمها كون القرآن العظيم وحي الله تعالى إلى النبي ε بلفظه ومعناه، ولا تجوز روايته بالمعنى، أما السنة فتجوز روايتها بالمعنى ويجوز في السنة أن يقول القائل: " أو كما قال " وما هو من قبيلها وليس ذلك جائزاً في القرآن.
- ومنها : أن الكاتبين بين الصحابة رضوان الله عليهم كانوا قلة وليس في مقدورهم أن يكتبوا السنة والقرآن معاً، وإذا كان ثمة اختيار بين أيهما يكتب الصحابة العارفون الكتابة، فليكن المكتوب هو القرآن، وذلك حتى يسلموه لمن بعدهم محرراً مضبوطاً تاماً لم يزد فيه ولم ينقص منه حرف .

2- وأما احتجاجهم بأن الرسول ε نهى عن كتابة غير القرآن، وغير القرآن هو السنة فهو احتجاج باطل من وجوه.

أولها: أن هذا الحديث الذي رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري وهو قول الرسول ε (لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه). هذا الحديث معلول أعله أمير المؤمنين في الحديث أبو عبد الله البخاري وغيره بالوقف على أبي سعيد ". ولو صرفنا نظراً عن هذا فإن رسول الله ε كما نهى عن الكتابة، فقد ورد عنه ε الإذن بها بل الأمر بها في أحاديث أخر ولذلك قلنا إن استدلالهم فيه تدليس حيث ذكروا حديث النهي ولم يشيروا إلى أحاديث الإذن وهي كثيرة منها: أن رسول الله ε خطب يوم الفتح فقال (إن الله حبس عن مكة القتل –أو الفيل الشك من البخاري وسلط عليهم رسول الله والمؤمنون .. " ولما انتهى من خطبته جاء رجل من أهل اليمن فقال : اكتب لي يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اكتبوا لأبي شاة).

ومنها : ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : " ما كان أحد أعلم بحديث رسول الله ε مني إلا عبد الله بن عمرو فقد كان يكتب ولا أكتب ، ومن ذلك ما روي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن بعض الصحابة حدثه فقال : إنك تكتب عن رسول الله كل ما يقول ورسول الله ε - بشر يغضب فيقول ما لا يكون شرعاً، فرجع عبد الله إلى رسول الله ε فأخبره بما قيل له، فقال له الرسول ε (اكتب، فوالذي نفسي بيده ما يخرج من فمي إلا الحق) وهذه الروايات في الصحيح وهناك غيرها ضعيف وهي كثيرة فإذا ما وازنا بين روايات المنع وروايات الإذن " وجدنا أبا بكر الخطيب رحمه الله(ت463هـ) قد جمع روايات المنع فلم يصح منها إلا حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه السابق ذكره وقد بينا أن الإمام أبا عبد الله البخاري قد أعله بالوقف على أبي سعيد وكذلك فعل غيره بينما أحاديث الإذن كثيرة والصحيح منها كثير روينا بعضه ومنها إضافة إلى ما سبق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في مرض موته ρ (ائتوني بكتاب أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده).

وقد اجتهد العلماء في الجمع بين أحاديث الإذن وأحاديث المنع، فنتج عن ذلك آراء أهمها:

- أن ذلك من منسوخ السنة بالسنة أي أن المنع جاء أولاً ثم نسخ بالإذن في الكتابة بعد ذلك وإلى ذلك ذهب جمهرة العلماء، ومنهم ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث وقد قالوا إن النهي جاء أولاً خشية التباس القرآن بالسنة فلما أمن الالتباس جاء الإذن.
- أن النهي لم يكن مطلقاً، بل كان عن كتابة الحديث والقرآن في صحيفة واحدة أما في صحيفتين فمأذون به .
- أن الإذن جاء لبعض الصحابة الذين كانوا يكتبون لأنفسهم، ويؤمن عليهم الخلط بين القرآن والسنة . .

وبهذا يسقط استدلالهم بحديث المنع الذي رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه هذا الحديث الذي يعدونه حجر الزاوية في احتجاجهم بعدم تشريعية أو حجية السنة ويكثرون اللجاج به.

3. أما قولهم إن الصحابة رضوان الله عليهم قد فهموا من النبي ε أن السنة ليست شرعاً فانصرفوا عنها، ولم يهتموا بكتابتها أو الالتزام بها فهذا من الكذب والمكابرة والمطلع على المدونات في كتب السنة وتاريخ العلوم وما كتب العلماء في مواقف الأمة المسلمة من سنة رسول الله ε وبخاصة موقف الصحابة رضوان الله عليهم من سنة رسول الله εيقطع بكذب هؤلاء ويعجب من مدى تبجحهم وافترائهم على الحق إلى حد قلب الأوضاع وعكس الأمور. فقد كان أصحاب رسول الله ε أحرص الخلق على ملاحظة أقوال رسول الله ε وأفعاله وحفظها والعمل بها بل بلغ من حرصهم على تتبع كل صغيرة وكبيرة وحفظها ووعيها والعمل بها أن كانوا يتناوبون ملازمة رسول الله كما كان فعل عمر بن الخطاب وجاره، وما كان ذلك إلا لحرصهم الشديد على معرفة سنة رسول الله ρ واتباعها والالتزام بها... وقد كان الصحابة يقطعون المسافات الطويلة ليسألوا رسول الله εعن حكم الله في بعض ما يعرض لهم

وكان الصحابة رضي الله عنهم حريصين على أن يسألوا أزواج النبي رضوان الله عليهن عن سيرته وسنته في بيته وكانت النساء يذهبن إلى بيوت أزواج النبي يسألنهن عما يعرض لهن وهذا معروف مشتهر غني عن ذكر شاهد أو مثال . بل لقد بلغ من حرص الصحابة رضوان الله عليهم على الالتزام بسنة النبيε أنهم كانوا يلتزمون ما يفعل ويتركون ما يترك دون أن يعرفوا لذلك حكمة، ودون أن يسألوا عن ذلك ثقة منهم بأن فعله ρ وحي فقد أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال " اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتماً من ذهب فاتخذ الناس خواتيم من ذهب ثم نبذه النبي ρ وقال: (إني لن ألبسه أبداً) فنبذ الناس خواتيمهم .

وقد حرص الصحابة رضوان الله عليهم على معرفة سنة النبي صلى الله عليه وسلم في جميع أحواله والالتزام بها والاستجابة لأمره ونهيه، ولم يكن ذلك إلا استجابة لله تعالى في أمره بطاعة رسوله ρوالاقتداء به كما في قوله عز وجل ﭐ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﭑ الأحزاب: ٢١، ثم استجابة لرسوله ρ في أمره الأمة باتباع سنته والالتزام بها كما في قوله ε: (خذوا عني مناسككم) وقوله (صلوا كما رأيتموني أصلي) وقوله ε: (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى) قالوا : يا رسول الله ومن يأبى ؟ قال : (من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى).....

هذا قليل من كثير مما يبين موقف الصحابة رضوان الله عليهم من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو موقف يتسم بالحرص الشديد والاهتمام البالغ على معرفة سنة رسول الله ε وحفظها والالتزام بها بل وتبليغها إلى من يسمعها استجابة لقول رسول الله ε : (نضر الله امرأ سمع مقالتي ووعاها فأداها كما سمعها، فرب مبلَّغ أوعى من سامع) ومن هذا يتبين مدى كذب أعداء السنة وأعداء الله ورسوله في ادعائهم الذي سلف ذكره .

4. وأما دعواهم بأن كبار الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يكرهون رواية الحديث وكان عمر رضي الله عنه يتهدد رواة السنة وأنه نفذ وعيده فحبس ثلاثة من الصحابة بسبب إكثارهم من رواية السنة فهذا كذب يضاف إلى ما سبق من دعاواهم الكاذبة وفيه جانب من التدليس الذي لا يخلو عنه كلامهم .

أما أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يكرهون رواية الحديث فهذا باطل والحق أنهم كانوا يخشون روايتها ويهابون من ذلك لعظم المسؤولية ووعيد رسول الله ε على من يكذب عليه في قوله عليه السلام (من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم بين أمرين هم حريصون على كل منهما أولهما : تبليغ دين الله إلى من يليهم من الأمة ثانيهما : التثبت والتحري الشديد لكل ما يبلغونه عن رسول الله ε لذلك كان الواحد منهم يمتقع وجهه، وتأخذه الرهبة وهو يروي عن رسول الله ε ، فالصواب إذن أن الصحابة كانوا يهابون رواية الحديث بسبب شدة خوفهم من الكذب على رسول الله ε ،أو الخطأ فيما يروون وليس كما يزعم هؤلاء أن ذلك لأنهم كانوا يرون السنة غير شرعية أو أنها ليست مصدراً تشريعياً .

أما دعوى حبس عمر رضي الله عنه ثلاثة من أصحابه هم : عبد الله بن مسعود، وأبو ذر، وأبو الدرداء رضي الله عنهم فهذه رواية ملفقة كاذبة، جرت على الألسنة وقد ذكرها البعض وتدون في كتب الموضوعات من الأحاديث والوقائع فليس كل

ما تجري به الألسنة أو تتضمنه بعض الكتب كما تجري على الألسنة صحيحاً وقد تولى تمحيص هذه الدعوى الكاذبة الإمام " ابن حزم " رحمه الله في كتابه: " الإحكام " فقال وروي عن عمر أنه حبس ابن مسعود، وأبا الدرداء وأبا ذر من أجل الحديث عن رسول الله ﷺوبعد أن طعن ابن حزم في الرواية بالانقطاع محصها شرعاً فقال : إن الخبر في نفسه ظاهر الكذب والتوليد لأنه لا يخلو : إما أن يكون عمر اتهم الصحابة وفي هذا ما فيه، أو يكون نهى عن نفس الحديث وتبليغ السنة وألزمهم كتمانها وعدم تبليغها وهذا خروج عن الإسلام، وقد أعاذ الله أمير المؤمنين من كل ذلك، وهذا قول لا يقول به مسلم ولئن كان حبسهم وهم غير متهمين فلقد ظلمهم فليختر المحتج لمذهبه الفاسد بمثل هذه الروايات أي الطريقين الخبيثين شاء.